لينا والبرتقال

قصص

سليمان نزال



2005

لينا والبرتقال

نفرو للنشر والتوزيع

الأشراف العام:

محمد الحسيني

المراسلات:

٤٩ ش البطل احمد عبد العزيز

٢١ ش الصنـاديلي بالجـيزة

تليفون **٣٠٣٢٦٠١**

٥٧١٢٦١٨

فاكس:

٢٤٧٨٦٨٦

موبايل:

٠١٠٢٣١٣٥٧٩

البريد الإلكتروني:

dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

اسم الكتاب :

لينا والبرتقال

اسم المؤلف :

سليمان نزال

رقم الايداع بدار الكتب المصرية :

٢٠٠٥/٤٤٢٩

تصميم الغلاف :

كامل جرافيك

لوحة الغلاف :

الفنان عمر جهان

الطبعة الأولى

٢٠٠٥

الفـــــهــــــرس

1

الحلال الضائع

آنذاك، كنتُ صغيراً، و كان وجهي الطفولي يرمي ملامح من دهشة و تردد على الحصيرة. دمي أيضاً، كان ما زال يحبو على طريق الحكاية، وكان قلبي و صوتي..

آنذاك ، أحببت الكتب، و النرجس البري، تلتقطه أكف صغيرة من بين جنبات الصخور، أحببت صوت فيروز، و إن لم أكن قد استوعبت تماما أبعاد الغضب الساطع الذي كانت تدعونا إليه، و يبشر به صوتها الجميل.

كنت أستمع بحزن شديد، إلى قصة البلاد، و قطعان الماشية التي كانت تملكها عائلتي، وكان عدد رؤوس هذا الحلال الضائع ، يختلف ما بين حكاية و حكاية، عندما يكون مزاج جدتي صافياً، يكون عدد هذه "الثروة الحيوانية" ٧٠٠ رأس، و حين يشتد غضب جدتي و تحك الذكريات الأليمة وترفع العدد إلى ألف و ألفين.

و حين أحتج على ذلك تقول لي بغضب: " أنا مش شاطره بالعد، روح عدها انت" روح عدها غصب عن اليهود".

و في كل يوم، تروي لي الخضراء جدتي حكاية جديدة، تناديني و تقول: " تعال يا علي، أسولفك، و لع لي سيكارة، مليحة لوجع إسناني"

و لم تكن جدتي تملك من الأسنان إلا ضرسا أو ضرسين.
كنت أفعل ذلك سعيداً، أضع رأسي الصغير ما بين حجرها و شريط ذكرياتها..
لكني لم أتخلص من زحف القلق، الذي كان يرقد بين أصابعي، كلص أو مُحتل دخيل.
لم أفهم لماذا تصر جدتي على مناداتي باسم غير اسمي، لم أسمع سواها يناديني باسم علي..
تقول جدتي: "تعال يا علي، أكعد حدي، و سولفني شو عمل حصانك باليهود و الإنكليز".
و عرفت أن عليا هو خال أبي و شقيق جدتي، هو من كان يملك حصاناً و يعمل"مخضرا" أيام البلاد و الثورة.
و أخذت أيامي تكبر في اللجوء القاسي المرير، و بدأت أكتب شعرا عن حصان جدي علي المفقود، و أنشر الحروف التي أكتبها في هواء مخنوق في غرفة من طين و قش..بدايات أولى و حرائق تحت الجلد و ما بين السطور..
- أنت تكتب هذا اللغو و الكلام الفاضي!، و نحن نقاتل، قال لي صديق طفولتي مفيد:ماذا تريدني أن أفعل يا صديقي؟
ماذا تفعل؟.. تسألني.. قاتل ضد الذين اغتصبوا أرضك و سرقوا ماعز أهلك. ..يا أخي اكتب و قاتل..
و ذهبت إلى الخضراء، التي ما إن رأتني حتى قالت:" شو كصتك، زعلان؟".

فلت لها: ما رأيك أن أذهب لقتال الأعداء ، يا جدتي؟ أجابت: طبعاً، إذهب و قاتل مثل أصحابك، لا تخف، عليك أن تجد حصانك الضائع يا علي، و أن تسترد أملاكنا..

قلت: حسنا يا جدتي أذهب.. لكن أنا اسمي سرحان مش علي!.

قالت : اعرف يا حمار!..أو تراك تظن أنني خرفانة كما يقول أحمد أبوك.. إنني أتذكر كل شئ في فلسطين، أريدك أن تكون مثل أخي علي، قوياً، تقاتل أعداء شعبك ، إذهب و ناضل يا علي و لا تظل سرحاناً..

صعدت إلى الجبل مع الشباب، لم أعد مترددا ، وكان اسمي الحركي علي!

2

إجتياح

جالساً يقرأ..فوجيء بصديقه، محمد، يقتحم عليه غرفته بصرخةٍ مدوية..و بوجه مكفهر ، حزين القسمات..

:- ما بكَ يا محمد.. هل تخاصمتَ مع خطيبتكَ "إيفا" مجدداً؟.

تحوّلَ فمُ محمد إلى جرحٍ ينزف النبأ الصاعق الأسود..

" شو خطيبة و بلوط إصفر..قل تهاوشنا مع خيبتنا يا سليم.."

سألَ سليمٌ بقلق: "شو صار.. احكي بسرعة ؟".

"شو نايم بالعسل..الخنازيز اجتاحوا البلد..دمرو كل شيء.. قصفوا كل شيء".

"شو بتحكي... يا محمد؟" .

"و أنت قاعد عم تقرأ بكتاب الكيمياء يا أبو السُلم..طز بالطب يا أخي! إذا بدنا نظل قاعدين هون مش عارفين نداوي جراحنا و نساعد شعبنا "

بحركة عصبية ضربَ، سليم، المعادلات الكيميائية في سقف الغرفة.

قال لصديقه:- سأذهبُ إلى هناك.. لا.. لن أمكثَ هنا كي أشاهدَ عجزي يتابع:" أيام الندم" الوحشية

قال محمد:- أنا معك..

على عجل كان يأتي القرار..

تحركا..ذهبا معاً ..تركا الجامعة..هجرا المواعيدَ المخملية..أُتهما من

قبل بعض الجبناء و الانتهازيين و" لصوص" المنح الدراسية بالتسرع و الجنون..

بعد أقل من أربع وعشرين ساعة ، كانا في المواقع الأمامية، في متاريس الصقور..إنطلقا مع كثيرين..في مواجهة الخنازير الصهيونية..

جالساً، يقرأ في الخندق..مع ساعات الصباح الأولى..كان صديقه، محمد، يجلس إلى جواره و بيده بندقية كلاشنكوف، أخمص حديدي!

أخرجَ سليم كتاباً من جعبته.. إمتدت يدُ صديقه إلى الكتاب.. عرفه..

قال محمد جاداً: حسناً فعلتَ بإحضارك كتاب الكيمياء..

أجابَ سليم: الآن يمكن أن نحضّر معادلة جديدة رادعة ضد الاجتياح الإجرامي.

3

إضراب

الليل في آخر الليل، و رفاق السجن نائمون ، بعضهم مُرهق بسبب إضرابنا عن الطعام.. وأنا أيضا مُتعب لكني صامد مثل الآخرين.. قلناها جملة واضحة كصرخة زلزال و بعرض و طول كل سنوات المعاناة: " الجوع و لا الركوع"

أشعرُ بحركة زميلي باسل، يتقلب في فراش القهر، أنادي: يا باسل..لا يرد، يستغرقُ في سباتِ المكابدة، أصواتُ الزفير و الشهيق تتصاعد، تختلط..أسمعها أعلى بعد الإضراب المفتوح..أنادي على إبراهيم..حتى إبراهيم لا يجيب..

-أتركهم ينامون يا باسم..ينبغي ان ينالوا قسطاً كافياً من الراحة حتى ينجحَ الإضراب و يستجيب المجرمون لمطالبنا..

"-مين ..أبو مصطفى.."

"-أيوه أبو مصطفى يا أخي.. و كمان فيه مسجونين غيري سامعينك منيح.. ما بردوا علشان تعبانين و بدهم يواصلوا الإضراب.."

"-نام يا أبو مصطفى.. و لا يهمك و انا كمان بدي أواصل و أستمر مثلكم.. بس قلقان شوية".

باسل صديقي الذي يحلم بأصوات مسموعة.. كان معي قبل أيام

عندما دخلنا في عراك مع حراس السجن المتوحشين، اشتبكنا بالأيدي. سددَ باسل لكمةً إلى وجه أحد الجلادين و تبعته أنا بصفعة جلاد آخر..تبادلنا الضربات..تكاثروا علينا. وحين انضمَّ إلينا بقية الأسرى و المعتقلين. .سلطوا بنادقهم الهمجية نحو صدورنا..تمزَّقَ قميصي.. و أصيبَ باسلٌ بجرح في جبهته.. و تمكنا من تمزيق العلم الإسرائيلي..أنا لست نادماً على شيء..بسبب منع الزيارات عنا و معاقبتنا و تهديدنا بنقلنا إلى سجن آخر . بزنازين انفرادية.. و حرماننا من" الفورة" التي لا تتجاوز عدة دقائق ..

الليل ليل..إشتقتُ إلى أمي.. إلى أصدقائي و عائلتي.. إلى رفاق واخوة النضال..إشتقتُ إلى أخي الصغير عائد.. أه يا عائد متى سأخرج كي أشتري لك الشيكولاته التي تحب؟..

أفكرُ في القناة الفضائية التي كنتُ أشاهدها في البيت.. لا تلفاز في المعتقل..قائمةُ العقوبات الحاقدة تتسعُ ..أتململُ في" سريري" المهترىء المهتز..يا إلهي لو كنت أعرف أسماء المسجونين الذين ناموا على نفس" البرش"ذاته.. لو أعرف عناوينهم و التقيهم شخصياً واحداً واحداً. صقراً صقراً..

كم يبلغ عددهم؟.. عشرات.. مئات.. ألوف.. كم..؟ قلتُ في نفسي و أنا أزيحُ عن جسدي غطاءَ السجن المهلهل:" سأقترحُ عليهم بعد إطلاق سراحي.. أن نجتمعَ في قاعة كبيرة..ثم نؤسس رابطة" البرش" الواحد.. لكن.. لا. ما هذه الأفكار العجيبة التي تضرب رأسك يا باسم..كأمواج بحر تصطدم بصخور الشاطىء العنيدة؟..الصورة أوسع ..أشمل. انت تعرف ذلك..لكنها - على اية حال - فكرة طريفة.. تسليكَ

و تدفع عنك وحشة الظلام ..ربما تسجلها في دفترك القديم..و لعلها تكون شرارة فكرة تقودك إلى حناء و لوز قصيدة جديدة..إيه الأفكار كثيرة و أنت تختار أجملها و مدة سجنك شارفت على الانتهاء.. و لسوف تخرج..أول شيء ستفعله , إذا خرجت..و لم يلفق لك الصهاينة تهمة إضافية بسبب دورك في الإضراب..ستقصد ذاك المطعم البسيط الذي اعتدت أن تجلسَ فيه مع أصدقائك و معارفك. حيث كنتم .تتناقشون, تحللون الوضع السياسي, تنتقدون الفساد.. و تختلفون و تتفقون.. تتخاصمون أحيانا.. لكن تظلون أصدقاء و رفاق طريق..تشتاق إلى كل هذا .. وأكثر..تتذكر التلفازَ الجديدَ الصغيرَ الذي اشتريته قبل اعتقالك بثلاثة أيام.. يا للأوغاد لم يتركوك ..حتى لتواشيح و أزهار الفرح البسيط".

لكن الليل ليل ..أسمعُ أنين أبى علي....أبو علي في الأربعين من عمره , بطل, مسجون منذ بداية الانتفاضة ..يحتاج إلى عملية جراحية عاجلة , بعد إصابته بثلاث رصاصات, في إحدى المواجهات البطولية مع جنود الاحتلال.. و الصهاينة يماطلون في علاجه و يشتموننا حين نطالبُ بنقله إلى المستشفى..لا نسكت.. نشتمهم..نشتمُ من تسببَ في إحتلالهم لأرضنا, في تشريد و عذابات شعبنا.. في إذلالنا وإهانتنا..

الليل في الليل..أشد استفزازاً.. و الأخبار قليلة شحيحة في الخارج..هل يتضامن معنا إخوتنا في الخارج..أكيد يتضامنون..لو كان معي التلفاز .. كنت سأتابع الفضائيات و أعرفُ كلَّ صغيرة و كبيرة عن إضرابنا وردود الفعل.. و.كل شيء.

الإرهاق ينال مني..أحدقُ في أحد جدران غرفة السجن.. أبصرُ

التماعات..بريقَ الوان..مشاهدَ حروب. قصفَ مسجد في العراق.. أرى شاشةً تشبه شاشة تلفازي ..لا هذه أكبر و أعرض..كم بوصة يا ترى؟.. فاصل إعلاني..صوت المذيع الجهير..ينهض أبوُ علي..يتألم..ينهض بقية المعتقلين..يتوجهون إلى أبي علي..يطمئنون عليه..أبو علي يئنُّ..يصرخُ من جرحه المفتوح..يصرخ من أعماق الغيظ..
أسافرُ في غيمةٍ بعيدةٍ .. و ألتصقُ مع الضياء الصادر عن الحائط..شاشة ملونة..
" نقلَ مراسلنا من جنين.. من نابلس. من غزة ..من طولكرم.. من أريحا ..من القدس..من رام الله..من عسقلان..من فلسطين..أن إضراب الأسرى و المعتقلين الفلسطينيين و العرب عن الطعام دخلَ يومه الثالث..الخامس..التاسع..العاشر.. و تشهد المدن و المخيمات و القرى الفلسطينية و في الجولان و بعض البلدان العربية و في المهاجر و الشتات.. إضرابات و اعتصامات و حملات تضامن مع السجناء".
..- يا باسم..أين أنتَ.؟ .تعال ساعدنا حالة أبى علي خطيرة..
، انتبه. امسحُ وجهي بيدي و أقفزُ من سريري . أضعُ يدي على جبين أبى علي..ألاحظُ أن حرارة جسمه مرتفعة..
أطلقُ صيحةً و لا أنامُ حتى الفجر.

4

الأرجوحة

دخلَ في استراحة الفجر المحارب..إستأذنَ بعضَ أيامه الوفية و مضى إلى حقل انتظاراته المجاورة للقلب الكبير. ألقى بعباءة حلمه الصقري و ظلال صمته المفاجىء بين زيتونتين للمسيرة و الجذور . ثم توغلَ في أرجوحة الندى. يستطلعُ السكونَ الطيِّعَ في مفاصل اليخضور بحثاً عن نجمته المفقودة في الحرب و الأحزان و الرحلة الأخيرة.

يفتشُ عنها في الحديقةِ القديمةِ. على ضفاف أنهار الخوف و الإسمنت. لا يجدها. يصوِّبُ قلبه و نظراته نحو حديقة أخرى مُحايدة. في المدينة الكئيبة..يلقي تحيةً قلقةً على بوَّاب الورود الغريب و يقفز بين دروب السؤال و منعطفات الرد الحزين..فلا يسعفه الشجر في معرفة لون عينيها و اسمها و ملامح حضورها..و تعتذر منه العصافير لجهلها بمكان حبيبته..يخرجُ منهكاً من وعثاء التفتيش المضني. و عبث التجول في مساحة تائهة.

يزجره البواب الأبرص بنظرات مريبة. يتهارب من عينين مُشككتين. إلى عيني الصبا و اللقاء الآخر..يرفعُ يده في الهواء كأنه يلتقط شيئاً ضائعاً..فيطلق البوابُ المتجهم خلفَ مواجعه كلمةً سمينةً..

عادَ إلى قريته مشياً على أقدام التوثب..تعمَّدَ أن يسيرَ في طرقٍ غير

معبدة حتى لا يلحظه صديق يمر بعربة خضار أو سيارة نقل..فيلح عليه أن يصعد، ليوصله إلى بيته، وسط البيادر و المراعي الخضراء و الحصارات القريبة و البعيدة..

الأرجوحة تهتزُّ حيرةً..تنسمَّرُ اليقظةُ المستعادة في خطوط السرد و نسيج التمني..تداعيات تتسلق أغصانَ الزيتون الحارس..

أمسكَ شريطَ التوق و الذكرياتِ من أوله، لفَّه حولَ ساعديه..لا يريد أن يذكرها..لا يريد أن يفكرَ في فتاة عرفها و أحبها حين جاءت إلى فكرته و حياته في يوم ممطر.

لا يريد استدعاء فيض القصد البريء في كلمات الود عنه.. و ابتسامة أخته الكبرى"إباء" و تلميحات الضياء و التواصل .

سيعبِّدُ طريقاً للنسيان الحُر في ضلوعه..سيزيل علامات التوقف بين شهيقه و زفيره و لن تمر صورتها في القرنفل و ساعات "الغاردينيا" و نزهات الزمن الأخضر.

سينسى كل شيء و لا ينسى..

جلسَ تحت دالية الشروق المبكر في منزله..صنعَ شاياً ثقيلاً.. حاولَ أن يوقفَ صوتَ محركات السهو و التجاهل في أرجاء الروح و البدن..هدير..ضجيج..صرخات.. إصطدامات.. أضواء باهرة. تقاطعات صاخبة و سرعة قياسية لأشواقه لا تعبأ بأية إشارة مرور يطلقها شرطي معتوه..

تهتزُّ الأرجوحة من جديد..يحدقُ في زرقة الحضور.. مبهوراً ، سعيداً، يرفعُ رأسه إلى الأعلى، يبصرُ كلَّ حدائق الفرح و الألفة في وجهٍ باسمٍ يعود.

5

تجويف الأحلام

عادَ من السفر ..إرتدى معطفَ البدايات المبتهجة و شقَّ طريقه عبر ممراتِ الأيام السعيدة، قاصداً كرم الزيتون.
تجوَّلَ بنظراتِ الألفةِ و الإعجاب الشديد على الأشجارَ المباركة، وقفَ أمام شجرة يَبدو البهاء و الجلال على محياها.. أخذَ يحدق فيها تحديق عارف مُحب..لولا تلك الغمامة ..
سألها:- كم عمرك يا صديقتي الزيتونية الجميلة؟.
إبتسمت من ذاكرتها و أجابت:- أكبر منك أيها الفتى..
وضع يده برفق على أحد أغصانها و قال: بكم ؟ و كيف ذاك؟.
قالت:- بثلاث سنين..حين غرسني أبوك.. جاء مطوقاً بالمسرة..أسمعني أجمل موال سمعته في حياتي..و حين سألته عن سبب فرحه قال: زوجتي حامل بستة أشهر.. بعد طول انتظار".
و حين ولدت أنتَ أيها الشاب ..يا صاحب الكرم..جاءني المرحوم والدك.. و أخذَ يغني لي.. و أخذتُ أتمايلُ نشوةً و طرباً..و باركتُ له و طرحتُ ثمري مضاعفاً في موسم القطاف..
إعتذرَ للشجرة و شكرها ثم واصلَ رحلةَ الشوقِ إلى المنابتِ و الرزق و الجذور.. توقفَ أمام كلِّ شجرة زيتون، ألقى التحية على كل جذع و فرع و ورقة و منبت ظل..

تشابكت أحلامه و أمنياته مع الأغصان و الفروع المتشابكة..و أحسّ أن روحه تصعد" الزيتونات" و تحرسها بعد الغياب. في وضع التماهي.

عـيناه تنتـقـلان مـن سنة الغـرس...إلى سنـة الرعـاية..لسنوات جني المحصول..إلى سنوات الشقاء و التشريد..

عادَ إلى منزله في القرية مسربلاً بالرضاء ، فخوراً بما غرسته أيدي و جباه و عرق الآباء و الأجداد..

جلسَ على مـقـعـدِ الاعـتـداد..فـتحَ التلفـازَ.. يتـابع أخـبـارَ القـصف و الإغتيالات و المجازر المتواصلة ضد شعبه ..

إستـسلمَ لإغفـاءة..أفـاقَ على أصـوات مـزمـجـرة.. إخـتلطتَ أصـوات النداء..بأصوات المجنزرات و الجرافات و الانفجارات..

كانت الكلمات تصل إلى مسامعه..مثل خناجر تخترق أذنيه..

" أسرعْ يا أمين..لقد جرّفوا أشجارَ الزيتون في كرمك"..

و كان يغذّ الخطى..كان يفكر في شيء ما.

6

التماثيل

فشلَ المعلمُ مع تلميذه الانتهازي، تركه لأقنعته و مكائده المتعددة الخدمات و مضى يشكو لجرحه طعنات الأقزام.. إصطحبَ معه همومه و أوراقه و خريطة انتسابه و انطلقَ خارج المدينة..

إخترقَ الغابة بصبره..صرعَ في طريقه العديد من الذئاب، نزعَ بحد الجموح الكثير من الأشواك و النباتات العدائية.. و ظل يمشي و يمشي صوب جهة القصد، و كان وصوله في ساعات الفجر الأولى..

نزلَ من الجبل، إلتقطَ الزعتر البري..وصلَ إلى الوادي.. جلسَ على حافة جدول صغير ، أخذَ يحرك المياه بأصابعه .. كانت صورة التلميذ تبتعد و تبتعد ..

جمعَ كومةً حجارة من وادي العرفان..أخرجَ خنجر جده من جيب بنطاله الأزرق، وبدأ ينحت في الحجارة..

صقلَ الحجر الأول على هيئة البلاد..جرحَ إصبعه ، سالت قطرات الدم، سقطت فوق المنحوتة الصغيرة..وضعها في الشمس..حطت يمامةٌ فوق الصورة..

نحتَ من الحجر الثاني علماً بأربعة ألوان..حمله بثقة و حرص و رجعَ يتسلق الجبل.لم يحس بالتعب..كان سعيداً ، قبّله ثم وضعه على

القمة..

صاغَ الثالث على شكل صقر بأجنحة جميلة و قوية.. و لما فرغَ من العمل..أطلقهُ نحو السماء..و نظرَ إلى الأعلى بقلق.. لكن الصقر لم يسقط..و مرَ سربٌ من الصقور فوق الوادي.. أشارَ بسبابته نحو الفضاء و قال بصوت سمع رجع صداه:- ذاك صقري إني أميزه بوضوح من بين الصقور المحلقة..

شربَ بعض القطرات من الجدول..و مدَّ يده يلتقط الحجر الرابع.. أعطاه شكلَ المسجد الأقصى..إنحنى قبلَ أن يضعه في جيب قميصه فوق القلب.

تَذَكَّرَ جدته و حصان العائلة..فنحتَ الخامس على شكل حصان..سمعَ صوت الصهيل..كان يأتي..

تعرّق ..قطعَ بعضَ أوراقِ الدفلى.. مسحَ جبينه..حدَّقَ بالجبلِ القريب و قال:" لن أستسلم حتى أنجز مهمتي".

تنهدَ بعمق، و أمسكَ بالحجر السادس.. كان صلداً قاسياً..جرحَ يده للمرة الثانية..و صنعَ منه تمثالاً يشبه خارطة الوطن العربي..وضعه تحت شجرةِ خروب..

و التقطَ السابع..شكلَّه على هيئة مفتاح بيته في الجليل.

داهمه النوم.. قاومه قدر استطاعته و أكثر..نظرَ إلى كومة الحجارة المتبقية خارج التشكيل، و همسَ بصوت خجول:- هؤلاء هم تلاميذي..

و غرقَ في نوم عميق.

كانت غرفة السجن ضيقة.

7

الثعبان

أفاقَ الثعبان العجوز و هو قابع في جحره على صوت مُنكر يدعوه إلى دخول مسابقة للدغ الصقور..

قال الصوت القبيح: إذا تمكنت من بث سمومك في جسد الصقر الكبير..تحصل على جائزة عظيمة..كما ستقوم لجنة مؤلفة من كبار الحاقدين على الجوارح بنشر مذكراتك في مجلد صقيل.. و ستكون حراً في تلفيق القصص التي تناسب مزاجك و غدتكَ السامة.

فرحَ الثعبان.. و أخذَ يتراقص في جحره..ثم أحضرَ مشروبه المفضل من" الويسكي" و صبَّ كأسين: واحدة له و الثانية للصوت الآبق المراوغ ثم سأل:

-ما شروط المسابقة؛ حتى أعرف" كوعي من بوعي"..و آخذ فرصة كافية أتعلم فيها الطيران و تسلق القمم؟..

أجابَ الصوت المخاتل ساخراً: مع أنك لا تعرف كوعك من بوعك..سأخبرك..

-أرجوك أسرع..إنني متعطش للانتقام من دنيا الكواسر ..

قال الصوت العدواني: ينبغي أن تحضر بجلدك الجديد..و أن تكون

جاهزاً للمهمة خلال عشرة أيام.

-لكني..فقدت جلدي في المنطقة الخضراء.. بعد اتهامي بتزوير انتخابات لصالح صغاري الثعابين..

-أعـرف أنك ضليع في تزوير الحقائق و الأوراق و التواريخ و السجلات..هل ستصعب عليك قضية تزوير جلد جديد؟..

-قال الثعبان: أنا معتاد على الأمر..لكنك تعلم أن سرياً يقف على رأسه صقر عنيد..سلخَ جلود حلفائي، قد يسحقَ رأسي هذه المرة.

و مضى الثعبان في مهمته المستحيلة..محاولاً لدغ الصقور و الفوز بالعطاءات و المناصب الذليلة..

في فضاء المعاني الجليلة..كان الصقر العربي يحلق فى فضاء شموخه..لم يكن متعوداً على الانحناء و التنازل..

لكنه حين رأى الثعبان مرتدياً جلده المزور..حاقداً يبث السموم في كلَ جهات الاخضرار و التوهج..إنقضَّ عليه و أرسله إلى التلاشي مصحوباً باللعنات.

8

الحاجة ريما الطيبة

تحلمُ بالرجوعِ إلى البلد..في جبينها وديان الحكاية و هضابها..في عروقها بيادر و تعرجات السنوات الراحلة و منعطفاتها في الغصة و الرحيل.

تسندُ رأسها إلى حائط المنفى. تقفُ على شاطىء مخيم الرشيدية..تنظرُ صوبَ البحر في الجنوب..لا تبصر قريتها في عينيها..تُقَرِّبُ المسافات بقلبها..يحضرُ المكانُ..يغيبُ المكان..الصبار في المشهد.. و شرفة القرنفل و النعناع.. و أوقات الحصاد..و حقول الدامون..و الجنود و صراخ الأطفال.. و صوت أبيها الشيخ.. و الخروج القهري.. و الطفل الذي ماتَ على الطريق..مشاهد تظهر من خلال ثقوبٍ في الصبار..

مرت سنوات في هذا المخيم المحاذي لرائحة الوطن..و جدتي الحاجة ريما الطيبة تقرأ القرآن و تكبر في العمر..و تترحم على الأموات..و تربي الأطفال.. وتحدق في الآتي..كلما مات شخص من أهل مخيمها أو من أهل بلدها و معارفها في برج الشمالي و عين الحلوة..كانت الحاجة تتحسر و تتمنى لو أن المتوفي دُفن في فلسطين..

الحرب دارت و الحاجة ريما في المخيم..تزور أقاربها في المخيمات الأخرى.. و اشتدَّ الحصار , و فقدنا نسوراً و أقماراً و أحباء في معارك و صراعات.. و اضطرت عائلات كثيرة للسفر و البحث عن منفى أكثر

أماناً..و هي تصلي و تصابر و تترك بيتها متوجهة نحو الشاطىء القريب تنتظر هناك, لعلها تستقبل طيرا عائدا من جهة القلب و البرتقال..

سافرَ كثيرون من أصدقائي..خسرتُ الكثيرين .. سالت شلالات من الدماء...حوصرَ المخيَّم..أكلَ الناسُ العشبَ..بعضهم لم يجد حتى العشب.. أستشهدَ ابي و فُقد اخي على أيدي الحاقدين.. و جمعنا عمي فى حضور جدتي ريما و طرح علينا موضوع الهجرة إلى أي بلد..الدانمرك..ألمانيا..السويد..النرويج.. و أخذَ يعدد محاسن الدانمرك .. وافقنا جميعاً دون نقاش.. وأخذنا نبيع بعض مقتنياتنا لتأمين ثمن تذاكر السفر..

غضبت الحاجة..أصلحتْ نقابها فوق رأسها..حملت سبحتها في يدها..و صرختْ في وجه عمي عبد الله:

" -لوين يا عبد الله..من لبنان على فلسطين ..مش من هون على بلاد الأجانب."

- ثم أردفتْ بصوتٍ صبية في العشرين-:" أنا هون مش حابة أموت و إندفن.. بدك تكون دفنتي عند الكفار!".

و تأزَّمَ الموقف.. و أدخلنا الوسطاء و الوجهاء للتأثير على جدتي و اقناعها بمرافقتنا لاجئة إلى الدانمرك..

و كانت تجيب كل رسول , و مبعوث من طرفنا: " مش طالعة من المخيم إلاَ على البلاد..".

سافرتْ عائلات كثيرة من المخيمات, حتى أقاربنا التي كانت تزورهم رحلوا و هجروا..أفرغت المخيمات من جزء مهم من طاقتها الشابة.. و

الحاجة ريما الطيبة مصممة على الرفض..

في يوم, سمعتُ جدتي ريما بمرض إحدى صديقاتها من أيام الدامون..طلبتْ مني أن أشتري لها علبة شيكولاتة و أرافقها في زيارتها لصديقتها الحاجة فاطمة التي تسكن في مخيم البص.

وصلنا البيت..إنتظرنا لدقائق قبل أن تفتحَ لنا الباب امرأة عجوز..

"-و ين الحاجة فاطمة يا أختي.."

"-سافرتْ إمبارح مع أولادها و أحفادها على ألمانيا ..بدهم يعالجوها هناك.. و أنا إستأجرت البيت منها!".

و رجعنا إلى مخيمنا...طوال الطريق ظلت صامتة, دخلنا البيت..ثم صاحت على عمي:

" يا عبد الله قول لمرتك تعملنا شاي بالميرمية".

"- تكرمي يا حاجة".

"- يا عبد الله هاي الدانمرك ..وين على الخارطة".

" بعيدة يا حاجة .. بس فيها زبدة و أمان".

بيد مرتعشة أمسكتْ جدتي ريما بكوب الشاي..

" -: يا إبني انا مش طالبة أمان فوق هاي الأرض..أنا طالبة أمان لو تحت أرض بلادي".

و نطقت الحاجة بجملتها التي ننتظر و نتمنى..

"-خلص موافقة..

حضرنا إلى الدانمرك..عشنا في مدينة آرهوس, خصصنا للحاجة غرفة في شقة عمي..و كنت أزورها كل يوم.. أستمعُ منها إلى حكايات الزمان المغدور..

في كل مـرة كـانت تردد علـى مـسـامـعي الكلمـات ذاتهـا: - "مش رايحـة أسامحك يا نزار ..إذا بموت و تدفني هون بالغربة.
و أحيانا كنتُ أضغطُ عليها و أصحبها في نزهات إلى الحدائق العامة القـريبـة من المدينة.. و كنا نمرُّ على بعض المقابر المحاطة بالزهور و الأشجار..
-أداعبها و أقول:-" يا حاجة ريما الطيبة..يا حاجة ريما محمد سعيد..هون راح يكوني قبرك".
" -: فشرت!..ما بموت غير في بلادي".
" -: شو هو بإيدنا يا حاجة".
" - :آه.. بإيدي..".
و مضت الأيام.. و الشهور..و أخذت صحة جدتي تتدهور.. رقدتْ في المستشفى..ذهبنا لزيارتها أنا و عمي عبد الله و ابن عمي بلال و كل العائلة.
وقفنا بالدور نقبل يدها.. و كان عمي الأخير بيننا.. لكن قبلته أردفها بالعبارة التي أفرحت "ستي"
" -:يا حاجة.. سلامتك..شدة و بتزول..اليوم إجتك رسالة..بتقول إنك حصلتِ على جواز سفر دانمركي.."
تهللت أساريرها..لمعت عيناها..
" :- الحمد لله... بكرا بتروحوا بتقطعولي تذكرة..أنا رايح على الدامون..على طمرة..على شعب.. على لوبية.. على صفورية. على الزيب، على البعنة..على البصة..على علما..على الحولة.

انحلت المشكلة يا جماعة.."

أخبرنا الأطباء أن جدتي لن تعيش طويلا..حسمنا أمرنا..إشترينا لها تذكرة ..رافقناها إلى المطار..توجهتْ إلى فلسطين المحتلة..

إستقبلها في المطار بعض أقاربنا من آل سعيد..كانوا سعيدين لملاقاة الحاجة بعد سبع و خمسين سنة من النكبة و التشريد..

بعد يومين .. تلقينا على الهاتف الخبر الحزين:- ماتت الحاجة ريما الطيبة و دفنت في قرية "طمرة" حيث يعيش فيها ابن أختها.

ماتت جدتي..مازلتُ أحتفظُ بعكازها الذي نسيته في الدانمرك.



9

الحدث الكبير

متوترة كانت أعصاب الظلام..أمسكتُ حفنة من الحصى و رميتها على و جهه..

" -لا فائدة". قالَ الوقتُ الذي كان يتصبب عرقاً و ساعات خائفة.. رأيتُ فيها و في عقاربها بعض الخبث و التواطؤ.

قلتُ:- سيهرب..و لسوف تقنعه أمراضه و رشقاتي بالهروب..

قال بصوت ماكر : ـــ لن يوافق قبل أن تثقبَ ذاكرتك بمسلةِ النسيان..أو تسلمه المفاتيح..

هتفتُ حانقاً:- شروطي واضحة.. أنا لا أسلم مفاتيحي..على جثتي يا وقت.

أجابَ الوقتُ المراوغُ: لا تتعنتْ.. لن يستجيب لشروطك..لكنه قد يستوعب ما تحطم من أحلامك و أمنياتك في علبة سردين..

-قلتُ بسرعة:- أختطفه و أساومه على كل المساحة..

و ما إن فرغت من جوابي.. حتى رأيت رؤوساً دميمة تطل من زجاجات عملاقة. ترافقها دبابات و طائرات و أصوات انفجارات..تتوجه نحوي.. في الطريق و أنا أركضُ بسرعة ..إختلفتُ مع الوقتِ المُستفِز ..أخذَ وقته و انصرفَ و تركني..

لم أبالِ. أخذتُ وقتي و لم أترك جذور المكان..
ابصـــرتُ مـــواقـــيتَ جـــمـــيلة في أول منعطف..ألقـــيتُ عليـــهـــا تحيتي..إبتسمتْ..أشارتْ لي أن أدخلَ معها إلى الشارع العنيد..
دخلتُ..أُستقبلتُ بحفاوة من قبل حشد من الفرسان..جهزوني..
وقفتُ معهم ارتقبُ الحدثَ الكبيرَ.. و أستعدُ للمواجهة.

10

خنازير الغابة الوحشية

مــدت يدهـا الأحــلامُ..كـادت أن تمسكَ تحت الشـمسِ الصــديقــة كنوزَ فـرحي..لم يكن قد غـادر الصهيل بعد مرتفعاتي، حين أخذت الخنازيرُ تحشد أحقـادها و سيوفها و تتوغل في جـرحي وتضـاريسه الممتدة بين نهرين و مستقبل..
تحركت الغـابة الوحشية بظلامهـا و أكاذيبهـا و طعناتهـا.. و انتشرَ البث المخاتل المبرمج عبـر أقمار و طائرات الزيت الأسود في أرجاء الصمت و الدم و التشظي..و كانت يد الحلم تقـاوم و تكفكف الدموع التي سقطت على وجنتي الحقيقة.
كـان الافـتــراء يـأتي مــحــمــولاً في ســفـن..و في أفــئـدة مــعــجــونة بالأطمـاع..مـصـقـولاً ، لامـعـاً، كـان يأتي..كـان يتلى من على المنابر الدخيلة..
في صبيحة يوم ملبد بالأسى..أدركت أن صدور الخنازير لا تتسع لغير رماحي و طلقاتي..فتقدمتُ و تقدموا..
قاتلت من بيت إلى بيت..من جـرح إلى جـرح، قـاتلتُ..نفدت ذخيرتي.. حــوصــرت..كــان كل شـيء حــولي مُــدمــراً.. البــيــوت..المســاجــد .. المدارس..الجسور ..الطرقات..كان الدم يهمي غزيرا في شوارع العروبة.. و أنا أنقل غـضـبـي من زاوية إلى زاويـة. من جـدار مـهـدم إلى جـدار لا

يحميني من قنابل و رصاص الخنازير الغازية..
أصبت برصاصة في كتفي..تجلدت و لم أصرخ..إستقرت رصاصة ثانية في قدمي. أطلقت صرخة مكتومة لم تسمعها سوى روحي الثائرة..نزفتُ كثيراً.. غبتُ في دائرة من سواد و ألم ممض.
وجدتني مكبلاً بالسلاسل..معتقلاً في منطقة الخنازير و التوابع..لم يسعفوا جراحي..لكنهم كانوا كرماء! حين مزقوا قميصي.. و سمحوا لي باستخدامه كضمادة..لم أسمح لهم باستخدام جسدي النازف كمنفضة سجائر..لكنهم استخدموه..ثم بدأ التحقيق..
قال كبير الخنازير: سننسف بيتك و ندمر أحلامك. ثم توالت الضربات..
قال مساعد الخنزير: سنجرف حقل أبيك و نفجر بنية أفكارك..و استمر التعذيب.
قال رئيس أركان الخنازير: سنغتال رموزك و نرميك إلى نار اليأس حطباً.. و تواصلت المجازر..
قال الناطق بلسان القرود المتحالفة: سنقتل أطفالك و سنجتاح كل مدنك و قراك..و سنرغمك على الاستسلام..قتلوا الأطفال..إجتاحوا.. أحرقوا ..نكلوا بالناس..
إنتهى التحقيق..وضعوني في زنزانة انفرادية..أرسلت لي كل المكابدات عناوينها في جسدي..تحاملت على نفسي..و أخذت أقرأ سطور الصبر و الرجاء في يد الأحلام..و أطوف بقلبي و خيالي على بنية أفكاري..فأراها متماسكة..و رأيت الرموز باقية و خالدة..و لم أرفع راية بيضاء.

11

السقطة

إتصلتْ بي على هاتف المعهد الطبي. رأيتُ في صوتها غزالة تتوق إلى ملاقاتي. إتفقنا أن نلتقي في البساتين المجاورة . خارج الضجة و المدينة.. مضت ثلاثة أسابيع على آخر لقاء جمعنا؛ بسبب انشغالي و سفرها مع أبيها لزيارة عمها المريض الذي يعيش في دولة مجاورة.
لم أكن جاهزاً إلا للاستحمام ثم النوم لمدة عشر ساعات متواصلة..ثم للحلم . و تحقيق الاتصال و المشي معها على بساط من سندس و امنيات..

قبل ثلاثة أيام..لم أكن قد تخلصتُ من سطوة الحلم..إشتقتُ لفسحة تفكير تحت الرذاذ المتطاير..كان الممرُ لزجاً.. و ضعتُ منشفةً على رأسي و ثانية حول وسطي.. و خرجتُ من الحَمَّام كي أردَّ على مكالمة هاتفية..تقطعت أنفاسي بعد خطوتين..إرتطمَ ظهري بالجدار.. غبتُ عن الدنيا..غطستُ في بنفسج الغياب..وحده الشاهد كان مرفوعاً في الهواء.. و كان جسدي يسقط في هوة قزحية الألوان..كان يسقط بلا قرار..

شعرتُ بدفقة ماء تُلقى على وجهي..أخذتُ أعودُ إلى المكان..شيئاً فشيئاً أصحو.. اتميَّزُ ملامحَ صديقي سرحان..أشمُ رائحة

عطرية..يساعدني صديقي على النهوض. يعجز عن رفع جسمي الثقيل.. يسحبني إلى الصالون..يضعني على السجادة ..يرسل كلماته متتابعة..أفشلُ في استقبالها أول الأمر..تمضي عدة دقائق..حتى أتمكن من فهمه..

- اتحدث معك منذ مدة.. :" و أنت مش هون" هل تسمعني الآن..

- أسمعكَ الآن..

- الحمد لله. أنني حضرت في الوقت المناسب..الحمد لله. أنني صديقك وجارك في السكن..رأيتكَ و أنتَ تدخل البيت عائداً من "كشك" السجائر القريب..تلفنتُ لكَ أكثر من أربع مرات.. ولما لم تجب..حضرت لأطمئن عليك و من حسن حظكَ أيضا ترككَ للباب مفتوحاً.-

- أطلقتُ تنهيدة وتنفستُ بعمق و قلتُ : -أشكركَ يا أخي..

- قالَ سرحان: سأعملُ لك قهوة .. لكن قبل ذلك أخبرني لماذا كان إصبعكَ مرفوعاً في الهواء..هل تشاهدت؟.

- لا أعرف.. يبدو..

ما زلتُ أشعرُ بألم في أسفلِ ظهري.. السقطة كانت قوية..لكن رغبتي في لقاء الغزالة أقوى..

إرتديتُ أجملَ ما عندي من ثياب.. أخذتُ معي الخاتمَ الذي كنتُ قد اشتريته لها. قبل عشرة أيام..قلتُ في نفسي و أنا أمنيها بالسعادة: "ستكون مفاجئة رائعة".

في الوقت ذاته . كنا نصلُ إلى أول شجرة عند بستان إبراهيم..مدتْ

حـريـرَ يدها كي تسلّمَ عليّ .. إحتـضنتـهـا وضـعـتـهـا فـوق قلبي، ضحكتْ..

-تعال نجلس قرب هذه البئر..

-لماذا هذه البئر؟

"-شو نسيت" هنالك التقينا لأول مرة..

و قفنا ننظرُ إلى البئر من الأعلى..كانت تضحك و انا أشاهدُ وجهها في البئرِ و أشاهدُ فرحتي تطوف فوق سطح الماء..

قلتُ لها: أغمضي عينيكِ و مدي يدكِ الجميلة..

قالت" شو..جبتْ لي خاتم ...حبيبي".

قلت: نعم يا غزالة..

سمعنا صرخات ..جفلتْ حبيبتي..دورية من جنود الاحتلال البغيض كانت تقترب منا.. كانت تطلق الرصاص..إحتمينا بالأرض..

سقطَ الخاتم في البئر.

12

الصندوق

بإحكام أغلقُ نوافذَ حيرتي و أسفي. ثم تفتحها يدٌ مجهولة بعد لحظات.أغلقها و تفتحها إلى ما لا نهاية..أتصببُ عرقاً و أسئلةً مدببةً. و تظلُّ بوابة السجن مغلقة.

ها أنذا أرقدُ في زنزانة أخطائي. أكادُ أمسك ذاكرتي بين يدي..و أستعيدُ أشعارَ أخي . أرددها بصوت مرتفع. أشعرُ ببعض العزاء.. و أتمتمُ بألفاظٍ مبهمةٍ. أفهمُ منها كلمة الندم.

سأظلُّ أرى البحرَ في حديث أمي. و في عيونِ جدتي و زرقة مواقيتها الساحلية.

سأتذكرُ أبي و أخي و أهلي و أصدقائي و تجارتي و ذنوبي.

سأظلُّ أبصر الصندوقَ السحري و أشمُ فيه رائحة الأسرار و الذكريات و سأظلُّ أتذكر المفاجأةَ التي غيَّرتْ حياتي و ألقتْ بها على ساحل بعيد بعيد..

أخي الذي يكبرني بعامين.. كان يكتبُ عن البحر..و كان يقرأ لي كل مساء تموجاته الشعرية. لن أسامح نفسي فقد كنتُ أسخر من قصائده و أدعوها" حلمنتيشية" في حضور أصدقائه و أمام العائلة و الأقارب .

كنا . علي و أنا. ننامُ في غرفة واحدة..بسريرين حديدين صغيرين

يعلوهما الصدأ. كنا نضع متعلقاتنا و مقتنياتنا البسيطة في" سحاحير و كراتين" مع الوقت تتزايد أغراضنا و يضيق المكان الضيق؛ لأني كنت متعلقاً بجمع كل ما تقع عليه يدي من أدوات و أشياء بلاستيكية و نحاسية مستعملة التقطها من الطريق أو يلقي بها الأغنياء في المدينة المجاورة. فأذهبُ مع صديقي سعيد و نجمعها. نبيعُ بعضها لتاجر الخردة. أبى عقيل. و نتقاسم ما نعجز عن بيعه..

كان أخي الوحيد. علي. يشتكي من إزعاجي له.. و من هذه المواد التي أكومها في غرفتنا المتواضعة و المشتركة. لم تفلح كل توبيخات و نصائح أبي و" علقاته" لي في فتح طاقة أمل كي أبدل من سلوكي وأتوقف عن مضايقة أخي و أهتم بدروسي. فأُجبرَ الوالدُ على صنع "خزانة" لنا داخل أحد الجدران الطينية.. صار شكل الغرفة أكثر قبحاً..لكنه كان حلاً عملياً و مقبولاً .. و ساهمَ في التقليل من خلافاتي مع أخي..

و بقينا على هذه الحال ..أنا أسخرُ من علي.. و هو يصبرُ عليَّ و يساعدني في دروسي حين أضطرُ إلى تحضير الواجب المدرسي خوفاً و رعباً من" فلقات" الأستاذ محمد.

و أخذنا نكبر..علي واصلَ دراسته و تفوقَ فيها و دخلَ الجامعة؛ كي يدرسَ الهندسة المعمارية. متخلياً عن الشعر و القريض.. و أنا هربتُ من المدرسة و فتحتُ حانوتاً صغيراً لبيع الملابس المستعملة. . لم تكن تجارتي رابحة. بعد أن تعلمت التدخين واعتدتُ الذهاب لمشاهدة أفلام السينما..و في إحدى المرات تخاصمتُ مع صديقي سعيد و تشابكنا بالأيدي .لأن أ فتاة جميلة نظرتْ لي و ابتسمتْ و قالتْ: إنني أشبه نور

الشريف" مخلق منطق" بينما رد صديقي الذي شعرَ بالغيرة صارخاً بالفتاة المليحة:

"- شو عميا.. هذا شبه محمود المليجي ".

" -و إنت ما شا الله شبه مين.. توفيق الدقن؟ " ثم مضتْ في طريقها..

تحسنتْ أحوالنا المادية بعض الشيء..عندما الزمني أبي بدفع مبلغ معين كل أسبوع كمصروف للبيت، من أرباح محلي، و أضطررتُ للموافقة بعد أن تدخلَ في الأمر شيخ الجامع الحاج مصطفى.

كما أن أبي استمرَ في عمله كمزارع.. و كان علي أخي يساعده في أيام العطل و الإجازات الصيفية.

و كان في بيتنا صندوق عجيب آسر، أردتُ أن انقله إلى غرفتنا و اضع فيه بعض قطع الملابس التي أنتقيها من بين الملابس المستعملة وأحتفظُ بها للزبائن المخصوصين و المخصوصات! أبي رفضَ... و أمي كانت مترددة بعض الشيء، و جْدتي شاركت ابنها في رفضه.

الصندوق الذي يبدو مثل تحفة فنية، لا يتناسب مع وضعه في بيت متواضع، أحضرته أمي معها من فلسطين أيام النكبة و التشريد، جاءَ إلى المخيم محمولاً على ظهر حمار.

كان من جهاز عرسها، صنعه نجار ماهر من الناصرة. كما أخبرني بذلك أبي.

و اخذنا نكبُر علي و انا... نتجولُ في أزقة المخيم الضيقة و العرجاء.. و صرنا نملك ملابس اكثر و كتباً و احذية و أسراراً.. و تخلصتُ أنا

،بعد إلحاح من أبي، من أكوامي و أشيائي القديمة، المهترئة..
ذات يوم، دخلتْ علينا أمي غرفتنا التي أصبحت أجمل..بعد أن أُعيد بناؤها، مع غرفتين إضافيتين: واحدة لجدتي و ثانية لأبي و أمي، على إثر تدمير بيتنا و عشرات البيوت في حارتنا نتيجة غارة جوية غادرة من الطيران الإسرائيلي..
قالت أمي بلهجة الصبر :
" خذا صندوق زفافي..ضعا فيه ما تملكان من أشياء".
و أذكرُ أن عليا قال:" لا نريده..أنت تحتاجين إليه أكثر.."
قالت في غصة: " و ماذا أملك يا حسرة؟ مضى الشباب في غصّات الانتظار.. في هذا المخيم"
قلت: " أنا ما عندي مانع...يحل لي مشكلة".
أجابت أمي بحزن" خذه..كله راح".
إقتربَ منها أخي علي و قبّلَ رأسها..قبلتهُ ثم التفتت نحوي و قالت:-
"تعال أبوسك..و اترك أغراض أخوك.. حاجة تلعب بيها".
" أنا ما بلعب.. أنا بقرا شو كاتب بالدفتر..قال بِكتب شعر"
" أنا بطلت الشعر أصلاً حتى ترتاح.. و هذا دفتر للرسومات الهندسية يا ذكي.. إلتفتْ لملابسك العتيقة و محلك أحسن": قال علي و أثنت أمي على كلامه بأن هزّت رأسها علامة الموافقة..بينما اكتفت جدتي بهزِّ عصاها و التحديق بي طويلا..
و حملنا الصندوق السحري، كما كنا نطلق عليه، وأدخلناه إلى غرفتنا التي أصبحت من حجر إسمنت و باب خشبي و نافذة خشبية و

سقف" زينكو"..
كنا فرحين ..صار الصندوقَ يتسع للكثير من الحكايات و الأشياء و الحاجيات..صار مستودع أسرارنا.. و صرتُ أضع فيه النوعيات" الفاخرة "من الملابس التي أحصل عليها بعد غربلة" البقج" التي كانت تصلني من التجار..
و كانت هذا الملابس تساعدني في معرفة أسرار بعض البيوت..
و عندما ضُبطت" بالجرم المشهود" مع فتاة مخطوبة، سافرَ خطيبها للعمل كممرض في دولة خليجية.. حلفَ أبي بالطلاق أن يطردني ثم خفف عقوبة الطرد إلى الزواج. و ذهبَ مع الشيخ مصطفى و خطبا لي ابنة خالتي إلهاماً .. فتزوجتها في أسبوع.. و أصبحتُ أبا لطفلة بعد عشرة أشهر..
تخرجَ أخي كمهندس في الجامعة.. و سافرَ إلى أمريكا.. و توظفَ في شركة كبيرة و تزوجَ من فتاة عربية تعيش مع عائلتها هناك..
توقفَ أبي عن العمل.. بسبب الشيخوخة و المرض.. و أصبحت أمي عجوزاً تمشي على عكاز.. و توفيت جدتي..
بعد وفاة جدتي بيومين ، دخلتُ غرفتها الصغيرة و أخذتُ أفتشُ في حاجياتها..إلى أن عثرتُ على عقد من الليرات الذهبية الرشادية، داخل علبة من خشب الزيتون..لم أخبر عنه أحداً.. و أخذتُ قراراً..
بعتُ محل الملابس المستعملة و طلقتُ زوجتي و تركت ابنتي و عائلتي و سافرتُ سراً، كي أعملَ في إحدى الدول الصحراوية تاجر أسلحة مستعملة و حديثة..حديثة جداً...صرت ثرياً و دخلتُ في الدوامة..

و الآن.. أقبعُ في السجن و قد صودرت ممتلكاتي، بعد خلافات مع أحد الوزراء على صفقة تهريب سلاح..و أبصرُ يداً سحرية تخرج من صندوق أهلي.. أتمنى أن تخرجني مما أنا فيه.. و لا أفلحُ في إغلاق نوافذ الحيرة و الندم..لكني أنجح في ترديد بعض المقاطع الشعرية التي كتبها أخي المهندس علي، قبل أن يعتزلَ كتابة الشعر.

13

المتسلق

فركَ عينيه بيدِ التجارب المريرة..و أخذ ينظر في تحولات المخالب و العوسج في ولدٍ شبَّ عن طوق الطاعة و تخطاه إلى علقم الجحود..أبصرَ الوجهَ الطفولي الذي كان بالأمس القريب يتقاسم ملامح الصفاء مع الملائكة يتحول إلى بائع أقنعة في سوق التضليل.. و كان يكذب نفسه..يكذب قلبه..يجد له الأعذار..يختلق له المبررات..و كان يقسو على بقية أبنائه حين يشكون إليه تصرفات "دخيل".

و احتارَ في أمر هذا الولد العاق "دخيل"..دربه، علمه، رباه، أطعمه، دافعَ عنه، أغدقَ عليه عطفاً و دلالاً و هدايا.. أكثر من كلِّ إخوته و أخواته..فيزداد قسوةً ويمتهن الكذب، و يتورط في أعمال مشبوهة..

و كانت سمعة الوالد تسوء بسبب دخيل و عالمه الإجرامي..لم تثمر كل التدخلات و الوساطات من وجهاء الحي و من شخصيات القبيلة لردعه و إرجاعه إلى جادة الصواب!.

الولد كان يكبر..غداً شرساً مثل ذئب..صار شاباً كبيراً، يهابه الجيران و يبتعدون عن دروبه الشريرة.. أسَّسَ شركة تجارية بأموالٍ قيلَ إنها من المخدرات.. و تداولَ الناسُ إشاعات كثيرة منها إشاعة ارتباطه ببيع أراض لليهود..

أُسقطَ في يد الأب المغلولة إلى عنق التردد ..كان دخيل يجمعُ حوله أنيابَ طموحاته الخيالية.. و يمعنُ في صنع الكوارث..

حين جاء دخيل مرتدياً زياً شاذا غريباً .لم يدرِ بخلد أبيه أي معنى للتواطؤ و للوقاحة..لم يعلق على زي ابنه الفاضح..قال في نفسه:" غيمة استعراضية و سوف تزول مع الوقت".

في المرة الأخيرة..دخلَ غرفة والده بلا استئذان.. أخذَ البابَ في طريقه و دخل..

:- ما أجمل أكتافك يا أبي!.

تفرَّسَ الأب المصعوق في سحنة ابنه ثم قال-: تأدب يا دخيل..

لكن دخيلا لم يتأدب..اقتربَ من أبيه..أمسك بيديه و أخذَ يصعد و يصعد على أكتافه...

إستشاطَ الوالد غضباً..ألقى بالولد الجاحد أرضاً. ثم أطلقَ ساقيه للريح...

عندما شعرَ بالتعب..جلسَ كي يستريحَ في ظلُ شجرة زيتون..

و بدأ يمسح كتفيه من آثار الجحود.

14

المفاتيح

عائداً من جرح المدينة إلى جرح الصمت..أصعدُ درجات الشتات..أصلُ الشرنقة..أ قف على عتباتها..أُدخلُ يدي في جيبِ سترتي الزيتونية؛ بحثاً عن مفتاح..اكتشفُ ضياعه في طريق..يكتشفُ القلق حيرتي..أضرب الباب بقبضتي الغاضبة..ثم أركله بقدمي..ضربات متلاحقة..يتهمني جاري التركي بالإزعاج..أشرحُ له المشكلة..يأتي معي..يجرب مفاتيحه..باب الشرنقة لا يستجيب..أتراجعُ إلى الوراء قليلا..ثم أهجم بكامل حزني و جسدي، على باب الشرنقة الثلجية مندفعاً..ألجُ دائرةَ المؤقت في منزلٍ بعيد كئيب..أرتمي على مقعد برتقالي..أنظرُ في صور خالدة على الجدران..أحدقُ في صورةِ المسجدِ السجين.

تائهاً، اجلس اترقبُ عواصفَ انتظاري..متنقلاً بين ظلال الوقت المُهجّر و نسيج فكرة تعادني.. و لا تأتي..أجوبُ قاعةَ الهمِّ ذهاباً و إياباً و لا تأتي..اتخيّلُ حزمة من سنابل تفتش في الغربة عن جبيني، أتخيلني اكتب شيئاً و ألمس أعطافَ و شناشيل البدايات.. بأصابعي..تتقدم مني مواسم من فرح و كبرياء..أراها تمرُّ بأضلاعي..دفقات من شذا الرجوع..أمشي على طريق مضاءة من الجانبين..أتحسسُ قلبَ الحكاية..أشعرُ أني امتلكتُ مفاتيحَ البوح..أبصرها تتوهج على

الأغصان..على البيادر..أحملُ بيدي حفنة قمح، أجدها ثقيلة..يتبين لي أنها تحتوي على بضعة مفاتيح ملونة..تتوهج.
أخرجُ من طقوس أعالي الزفير..تتفرق دهشتي أسرارا، أهاجم المسافات بالصبر..أتحرك، أصحو، أتماسكُ، أعرفُ وجهتي، أطمئن على حالةِ السنديان، أقودُ صوتي إلى مهاد الأعراس و الجذور الباقية.
المفاتيح ذهبيـة..تصدر عنها ابتسامات ذهبية..يستقبلها بريد الحقول..يوزعها على الناس و المواعيد و الأشجار.
تدنو منها..تدلكَ على الصهيل..تشيرُ إلى الأبوابِ الكثيرةِ، تعرف بابك..آلاف آلاف الأيدي و حشود..ممسكة بمفاتيحها..

15

النداء الأخير

فجـاة. ينزلُ من طائرةِ أحـلامـه على سـلالم الصحـو المُباغت.. تظهر إشارات الالتياع على جبينه المُتَعَرِّق ، يرسلها لبقية الجسد الناهض من نومه قبيل صلاة الفجر بنصف ساعة.

خطوات آليـة في مربع الفقـدان..يتنقلُ معهـا مثقلاً بمعالم التوق من غرفته مروراً بالمطبخ، إلى" الصالون"..

يقفُ على مسافة من صورة ابن عمه الشهيد"محمد"، تلتمعُ في ذهنه رسائل الكواكب..تتوضح فيه مفردات الفداء..و يعلنُ السفر.

يقفُ في منتصف الغرفة الكبيرة..يمدّ ذراعيه على شكلِ جناحي طائرة مدنيـة..يتصـالب..يتقمص هيئـة الطيـور..يرفعُ قامـةَ الأشواق..شيئـاً فشيئاً..تتصاعد أمنيات بفضاءات صديقة..

يتجـه شرقاً..يقصدُ جنوب الحلم..يبصرُ الكرمل..يطيرُ فوق بحيـرة طبـريا، يطوفُ من الماء إلى الماء..يتقـاطعُ أفقيـاً و عمـودياً مع ذاكـرة محاربة و سلالة و شلالات و ربيع..

يشـاهدُ كـرمَ البـدايـةِ..يرى من عل حـقـولَ الـزيتـون..الـدمـاء النـازلة من عـروق السنديان و البـرتقـال يـراها غـزيرةً..يبـتلعُ المشهـدَ في ذاكـرته و يواصل الطيران..

تتقلصُ عضلاتُ وجهه المرتحل..يفتحُ شدقيه..يشعلُ حـزمةً من حطبٍ

الوجد...يشعر بالعطش..يقرر النزول في مطار رغباته و الشرب من ينابيع البلاد..

نيرانٌ أرضية تستهدفُ طائرةَ التمني الجريح..صورايخُ معاديةٌ تنطلقُ صوبَ الطائرة.. يرتفعُ في السماء..ينجو بأحلامه..يمسكُ بليمونة، يعصر قطراتها في حنجرة الصبر..

يلاطمُ الأسى.. يدفعه عنه بصيحاتٍ متقطعةٍ و عاليةٍ..مثل هدير الطائرات...

يقررُ العودة من أجواء مختلفة..لا يتوقعها العدو.

يصعدُ على الكرسي الخشبي..و منه على طاولة"الصالون" و يتمتمُ بكلماتٍ تشبه النداء الأخير.

16

الورقة الخائنة

في صبيحة اليوم الذي أعقبَ غارة الإرهابيين على المخيم، جلس الصديقان تحت شجرة التين، تحدثا عن جنازات الصقور و الفرسان..و عن اغتيال النجوم و أطفال المدارس..و تكلما بحرقة، عن صمت المومياوات القريبة و البعيدة .
إمتدت يد ثابت إلى أحد أغصان شجرة التين..قطعَ ورقة من الأوراق التي كانت تبدو دخيلة في شكلها و حجمها، و غريبة عن المكان ، إلتفتَ إلى صديقه حسين، ثم بادره بالقول:
-هل تملك قلماً يا صديقي؟.
قال حسين:- أملكُ قلماً و دفتراً..
-أعطني القلم فقط..
-حبره أسود ، لا يهم!.
أجابَ ثابت:- هو بغيتي..و مربط فكرتي في صهيلها..
أخـذَثابت القلم و كتبَ بضعة أسماء و عناوين على ورقة التين الصفراء.. قبل أن يلقي بها في حفرة قرب الجدار المهدم، نتيجة القصف و عمليات التجريف.
-ماذا فعلتَ يا صديقي..ماذا تكتب؟.
-أسماء بعض العملاء و الجواسيس"عصافير الشر و العار" من قبيلة

أبي رغال و أبناء العلقمي الذين انتشروا افخاذاً و بطوناً مثل الفقع السام..في معمورة هذه الأمة!.

قال حسين:- يا ثابت..طالَ ثباتك..أنتَ تلتقط المشهد مكثفاً و مختصراً في وريقة تين..أتراها تتسع لأبالسة الطعنات الغادرة؟.

أجابَ ثابت:- تتسع للموقف الصحيح و توابعه في مدار الزلازل الغاضبة.

-نحتاجُ إلى غابة كبيرة كي نكتبَ على أوراقها أسماء الخونة..

أشعلَ ثابت لفافةً..تحسس مسدسه الصغير, و استندَ إلى جذع التينة و قال:

- أنظرْ يا حسين إلى الورقة الملقاة في حفرة العِقاب.

- في حفرة العقاب ! ما بها يا ثابت؟.

- ألا تلاحظ شيئاً يحدث؟.

نظرَ حسين إلى ورقة التين المذعورة الآخذة في التقلص و الضمور .. نهضَ من مكانه و توجه إلى حيث توجد ..و أطلقَ بصقة نحوها..عادَ إلى صديقه ثابت و قال له:

- أراها أصبحت أكثر اسوداداً و ذبولاً بعد أن بادرتها ببصقتي الهائلة.. و يخيَّل إليَّ أني سمعتُ أنينَ أسماء محترقة و عناوين هاربة إلى أسيادها..

بعد لحظات أخذت الأسماء الهجينة المكتوبة على ورقة التين المسودة تحترق..إشتعلت فيها النيران..

قال ثابت:- هل رأيت..نتيجة كتابتي لأسماء الخنازير على ورقة ذابلة ؟.

أجابَ حسين:- هل رأيتَ نتيجة بصقتي و لهيبها؟.

-لكنك لم تفهم في البداية.

- لكني فهمت.. و فعلت.

كادا يختلفان..

غير أن الصوت الذي انطلقَ من أعماق و جذور شجرة التين..كان واضحاً، قوياً، حاسماً.

"-أنا من أحرقت هذه الأسماء العميلة..أنا من طردت هذه الورقة الخائنة"

تعانقا كصديقين حميمين..و عادا للجلوس على حصيرة في ظل الشجرة العملاقة.

17

اليد الصغيرة

سقطَ الصاروخُ الأول في الحارة الغربية..أصحاب البيوت القليلة ذات السقوف الإسمنتية، صعدوا على سطوحها و شاهدوا الطائرات المعادية و هي تفرغ حمولتها من الضغائن شديدة الانفجار و سارعوا من خلال أصواتهم و إشارات أيديهم و نظراتهم الساخطة إلى تبليغ قاطني الحارات ذات سقوف" الزينكو " بموقع الغارة و المنازل المدنية التي استهدفتها قاذفات الحقد الأعمى.
إندفعنا إلى الشارع، صبية و أطفالا..و طلبَ منا كبار السن أن نسارعَ و نختبىء في الكهوف و الملاجىء..لكن الحماس كان يأمرنا بعصيان كلام العقل و الحسابات الصحيحة..فانطلقنا لنشاهدَ آثار القصف الوحشي الصهيوني و لنقدم يد العون للمصابين..
أخذنا ننقلُ خطوات الاندفاع من زاروب إلى زاروب في المخيم..و كانت تصل مسامعنا تحذيرات و نصائح جديدة من أهل الخبرة و التجارب في الحروب السابقة..فلم نحفل بها..و تلقينا بعض شتائم الحرص و الود من عجائز ، بعضهن قريبات..فنرد عليها بابتسامات و سرعة أكبر نحو الحارة الغربية..
قبل أن نبلغ مقصدنا.. سقطَ الصاروخ الثاني..تطايرت الشظايا.. و

الحـجـارة فـوق الأسطح ...حـتى وصلت إلى حـارات "اللوابنة" و" الصفافرة" و" الغوارنة" و" المغاربة"..لم نتراجع.."نزيه" أحد رفاق الصبا ارتمى على الأرض و أمرنا أن نحذو حذوه..فسخرنا منه..فما لبثَ أن لحقَ بنا راكضاً حتى وصل إلى المقدمة..

أصـبـحت قلوبنا الفـتـيّـة الملهـوفـة لرؤية الحـدث على مـشـارف المكان..فـسـقط الصـاروخ الثـالث.. فـأخـذنا الأرض بشكل تلقـائي..باسـتـثناء "نزيه" الذي تعـمَّـدَ أن يظلَّ واقـفـاً بشـمـوخ يضحك..ثم قال:

-واحدة بواحدة!.

أجـابه" حـسين" بشكل غيـر مـتـوقع: كلنا على خطأ..ليست بطولة أن نكون أهدافاً سهلة للعدو و غاراته الجبانة..

حين وصلنا إلى الحـارة الغـربيـة رأينا المئـات من سكان المخـيم و من مـختلف الفئات العـمرية يتجـمهـرون حول البيوت المدمرة..فاخـترقنا الحشود ببواكير المواجع.. و أخذنا نساعد في رفع الركام و البحث عن أحياء أو مصابين تحته..

كنتُ نحـيـلاً..مما مكنني من إدخـال جـسـمي في فـجـوة بين جـدارين مـهـدمين.. و حين مـددتُ يدي..شـعـرتُ بشئ لزج ينسـاب في أصابعي..أدركتُ أنني أمسك بيد إنسان تحت الأنقاض و أن كفي غارقة في الحزن و الدماء..توقفتُ لحظة عن الشدِّ..و صحتُ بالجموع:

- إنني أمسك بيد صغيرة..ربما جثة شهيد أو شهيدة.

- إستقبلت حواسي المتوثبة أمر صوت رجولي جهير:

- حاولْ أن تسحبها ..حاول.. لا تخف..
كـانت يـد الطفلة الصـغـيـرة في يدي..يداً مـقطوعـة من الرسـغ..ثم اشتركَ الجميع في إخراج بقية الأشلاء..
في اليوم التالي لم أذهب إلى المدرسة.. و نمتُ في غرفة جدتي و بقيتُ حتى مطلع الفجر. أسـاهر أسئلتي الأولى. ممسكاً بعـصـاها التي جلبتها معها من فلسطين.

18

بريد العاشقين

أقبلَ الربيعُ و ابتهجت ملامح الأرض المباركة و هي تجهِّز أحضانَ الفرح لاستقبال وفود و رسل عن مختلف الزهور و الورود و النباتات.. جاءت تحمل إليها عطر العرفان و الود و الديمومة.

تسلمتِ الأرضُ بريدَ العاشقين..و بينما شرعَ أبناء و بنات الربيع في نشر مرايا من أريج و صفاء في الأفق الضاحك ..زاغت نظراتها الترابية و بدت كأنها تفتقد زيارة من وردة ما..

أخذَ صاحبي الذي يعشق شقائق النعمان و قرنفل الأسرار الفتية و فراشات الذاكرة الخضراء.. يستعيد مشاهد التبرعم و التفتح في الحضور الباسل و في أعماق الانتظار و الترقب.

كان يسترجع صرخة الفقدان في حقل و رابية و بستان..يمزج المشهدين في صورة تلامس أضلاعه و تمر في حدائق قلبه المتبقية بعد التجريف..

كان يحاول الفصل فلا يفلح..يمضي في إغفاءة شاردة بين انفجارين.. و بينما هو على هذه الحال. أحسَّ بسؤال الأرض قبل أن يدركه سماعاً..

-حضرت كل الورود..حضرت الطبيعة بألوانها..باستثناء تلك التي راهنتُ على عطرها قبل الآخرين..

-يا أمنا الأرض..لا تغضبي..وردة العقوق تترك الطريق في منتصف الطريق.. و تبيع شذاها في مزاد الانهيارات الراقصة..

قالت الأرض:- حسناً..سأنساها..حجارتي كفيلة بسحقها و طردها من مملكتي السيادية..و لكنكَ تتعذب و لا تبصر البهاء يأتيكَ كاملا..

-يأتي كاملاً.. على مرأى البصيرة و البصر..لكنني أتعذب و لا أعطي للنائبات سبباً للشماتة..

-لا تفعل ذلك..أعطني يدك..

حين صافحتها..رأيتها تتوسع مساحة و ألقاً في خاطري.. ورأيتني أقدم لها باقة من ربيع انتسابي..

و كانت الصورة تتضح ، و تسقط و تنسحب منها كل الأجزاء الدخيلة.

19

جثة الجنرال

دخلَ الحقدُ غازياً..يرفعُ أعلاماً مخاتلة على ظهور دباباته. توهجت مواقيتُ الشجاعة في عروق البواسل و استنفرتِ الإراداتُ المتحدة في مخيمات الجنوب..و كان الصمود أسطورياً..و أسطورية كانت الملاحم البطولية.

.إنتبهتِ الأشجارُ للخديعة. نزلت إلى المتاريس. المعركة غير متكافئة. لكن اليخضور يتألق في العطاء..الشباب يستبسلون..أشبال "الأربي جي" في الرشيدية و البرج الشمالي والبص و عين الحلوة يطاردون الضغائن المعدنية المجنزرة بكامل وقتهم الفدائي المجهز بالثبات و الرصاص و القذائف.

كان القائد الشهيد" بلال الأوسط" يتقدم الكواكب و الحشود. يستبسلُ. يتفوق على جراحه..يغدو نشيداً و قصة ملهمة.

فادحة خسائر العدو كانت على أبواب" مخيم برج الشمالي"..دمَّرَ الشبابُ و أعطبوا عشرات الدبابات و المجنزرات الصهيونية..حتى العجوز "أبو سليم" ابن السبعين عاما. شوهدَ يطلقَ النار من رشاشه صوب جنود العدو..فتحمَّسَ الاخوة و الرفاق و اندفعوا إلى الأمام..

كان" محمد" الشبل ابن الثالثة عشرة. مع أبناء شعبه في المخيم يقاتل

مـثل الأسـود..مـثل الأسـود يقـفـز من خندق خـلفي إلى خنـدق مـتـقـدم.. جـرأته كـانت خـنـدقـه الأول. يتـقـدم.. يرسل النـيـرانَ صـائبـة في صـدر الاجـتـيـاح المجـرم.. نظرةُ صـقـر تبـصـرُ وجـهـاً بشعـاً يخـتـبـىء في أحـد المجـارير..يصـوّب مـحـمـد سلاحـه .. كان الوجـه البشـع يئن..فـعـرفَ فـيـه وجـه ضـابط صـهـيـوني في رتبـة جـنـرال. كان الجنـرال "إكس" قـائد القـوة الصـهـيـونيـة المهـاجـمـة..

كـان الغـزو مـسـتـمـراً..إجـتـيـاح هـمـجـي يدمـر فـي طريقـة كلَّ شـيء..لم يستـثـن أحـداً .. الصـواريخ الصـهـيـونيـة تستـهـدف" ملـجـأ الحـولـة" فيسـقـط مـئات الشـهـداء و الجـرحى من المدنيين و الأطـفـال..يسـقـطُ صـاروخ آخـر على ملجـأ "النجـدة الاجـتـمـاعـيـة" فـيـسـتـشـهـد خـمـسـة عـشـر بطلاً..صـاروخ إجـرامـي صـهـيـوني يقـتـل عائلة و أطفال "أبو عـثـمـان زيـد" في أحـد كـهـوف المخـيـم..صـواريخ..غـارات هـمـجـيـة تقـتـل المزيد من النسـاء و الأطـفـال في حـارات و مـغـاور المخـيـم..

لكن مـحـمـداً..الذي دُمِر بيته.. و نجـت عائلته من الموت بأعـجـوبة..قـبضَ على الجنرال. بمساعدة رفاقه. و اقتاده أسيراً..

يرتجفُ الجنرال"إكس" خـوفـاً و إصـابة بـالغـة. و من مكان آخـر مـرتفـع ، يشاهدهُ نسرٌ فلسطيني يبتسمُ برغم شلالات النزيف..

قُدمت الإسعافات الأوليـة للجـنـرال الإسـرائيلي. فعلَ أهل المخـيـم كلّ مـا في وسـعـهـم لإنقـاذه. كـانوا يفكـرون بأسـراهم في المعـتـقـلات الإسرائيليـة..لكنه مات بسبب إصابتـه الخطيـرة.. و استمـرَ القصف من الجو و البحر و الأرض..حتى لم يبق حجر على حجر في المخيم..

في ظل حالة المعمعة و الخراب الشامل التي جاءَ بها الصهاينة و شارونهم السفاح..إختطفَ بعضُ الشبان الصغار الساخطين جثة الجنرال الصهيوني"إكس" و أخفوها وسط كومة هائلة من القاذورات في مزبلة المخيم..لم يكن هذا الرأي رأي الجميع..لكن هذا ما حدث..
إنسحبَ قسمٌ من المقاتلين إلى الخطوط الخلفية باتجاه صيدا و بيروت.. و زُجَّ بقسم آخر كبير في معتقل "أنصار".
دخلَ الصهاينة..و هددوا بقتل كل سكان المخيم الباقين..إذا لم يتم تسليم جثة الجنرال..و أُجبرت مجموعات من سكان المخيم على البحث عن الجنرال القتيل..مرت بضعة أيام سود دون أن يتمكن أحد من معرفة مكان وجود جثة الضابط .
لاحظَ عجوز فلسطيني.. وجود مجموعة من الكلاب الضالة .. تتحلق حول مزبلة المخيم.. فارتابَ في الأمر..كان جالساً أمام بيته المهدم عندما مرت دورية صهيونية..فأشارَ لهم بعكازه صوبَ المزبلة..همَّ أحد الجنود بإطلاق النار عليه..لكن جنديا آخر كان يتكلم اللغة العربية منعه بقوله:
"-إصبر شوية خلينا نشوف ما له".
ثم قال للعجوز: "شو القصة يا خرفان..؟".
بلعَ العجوز ريقه و كتمَ غيظه و قال بهدوء: :"دوروا بالمزبلة عن جثة جنرالكو..مطرح ما الكلاب بتدور؟".
و عثرَ الصهاينة على جثة الجنرال في مزبلة المخيم.. تماماً كما قال العجوز.

20

حكاية قصة

طلبَ مني صديقي أن أكتبَ قصةً في صحيفته التي تُعنى أيضا بقضايا الأدب.

أجبته بصراحة: إن مهنة الكتابة في أيامنا هذه تشبه مهنة العاهرات في بعض جوانبها. ضحكَ و لم يشاركني رأيي.

اعتذرتُ. الحَّ. أظهرتُ عيوبي و مثالبي عمداً. غطاها بمئزر صبره و بعباءة تواضعه الجم..

قلتُ له: لا تحاول..لن اكتبَ قصة. انا لا أحب القصص.. و أمقتُ الروايات.. و لا أقرأ لأحد. و لا اشاهد الأفلام.. و انام حتى الظهر تهرباً من شخوص هذا الوقت العنين اللعين..

-لكنكَ تستطيع..فلا تخذلني..إتفقنا. الآن سأقفل الخط!.

-لا تقفل.. لا . إسمع.. انا..لا أريدُ ان اكذبَ عليك..اشعرُ بأني آخيتُ العجز..كأنه أخي في الرضاعة..هل تفهمني؟.

-لا. .أنت تبالغ. لم أعرفك من مريدي الإحباط..أنتَ عندك موهبة وتتهرب من الكتابة في مجلتي!.

:- صدقني..لا أتهرب..لكن عندي مشاكل...أنا فاشل في الحوار مع جرحي..كيف أستدعي شخصيات لم أتشرف بمعرفتها ثم أجرّها إلى المونولوج و الحل و العقدة والحوار..

أخذَ صاحبي يشجعني و يُنزل عن ظهري، عبر الهاتف أحمالَ و أثقالَ الحزن و الخيبة..وجدتني مطوقاً بالخجل..و أدركتُ أن منافذَ الاعتذار قد سُدّتْ جميعها بطيبِ كلماته..

قال بنبرة دافئة: -إنتهينا من الموضوع..أنا بانتظار قصتك..مع السلامة.

-حسناً.. إقفلْ الخطَ من عندك و أنت مطمئن.. الله يسلمك.

تورطتُ في وعدي..أيقنتُ أنني في ورطة حقيقية لن ينقذني منها انطون تشيخوف و لا يوسف إدريس..هل أتراجع؟..غيري يكتب أحسن مني، لماذا إختارني أنا ؟ ..أنا بالذات..الذي يكره القصص و كتابتها و لا يطيق أن يجلس مع شخصياتها على طاولة واحدة في مقهى.. ما كان علي أن أوافق..عشر كلمات في الهاتف..ثم سقطت قلعتي بعد مقاومة ضعيفة..كان علي أن أتمسك بموقفي..

"لكنه أحرجني..خجلت منه.. حدثني بأدب.."

" أنتَ الذي أحرجت نفسك..من أين تأتي له بقصة..؟"

" القصص كثيرة..تجدها في كل طريق..كيف أكتبها، بأي لغة و اسلوب.. و بطيخ أصفر!".

" تكتب أو لا تكتب..لا فرق عندي..اليوم السبت و الطقس جيد و صيف بديع..سأذهب و أصطاد فراشة سياحية".

"لن تذهب..ستبقى معي..تساعدني على تأليف قصة..أحضر لي الأوراق..أو بلاش.. إفتح الكمبيوتر".

" أنا مجرد طيف..الطيف لا يحمل اقلاماً.. و لا يفهم في الإنترنت و لا

يرد على تعليقات و.. أنت الذي.."
"حسناً أنا الذي سأبحث عن عقدتي ثم أحاول حلها.."
" حلْ عني! أنا ذاهب".
خلعتُ قميصي..الدنيا حر!...أصبحت بمفردي..بمفردي ذهبتُ إلى الحمام..غسلتُ وجهي في الماء البارد..غسلت وحدتي بالصابون..أخذتُ انظرُ في الفقاقيع..شاهدتُ ما يشبه قوس القزح..لم أعد وحدي.. شاهدتُ بعضَ الشخصيات تخرج من بين الفقاقيع..بعضها كان يُسلِّم عليَّ..بعضها يزجرني و يمضي..إحدى هذه الشخصيات اتهمتني بالتحريض على العصيان..لم أُبالِ.
أحضرتُ مجموعةَ أقلام..منها الأبيض و الأسود و الأخضر و الأحمر... و كذلك الرصاصي.. أفضل دائما الرصاصي..و يُخيل إليَّ أني أرى بقية الألوان تصدر عنه, تتبعه في حالات الحزن و الفرح..أتخيلُ فقط..
أحضرتُ دفاترَ بيضاءَ..أخذتُ أنظر في بياضها كما ينظر الصيادُ إلى فريسة مشاكسة..أخذت أردد : البياض فريستي..أعجبتي الكلمة..كدتُ اتخلى عن مشروع محاولة كتابة قصة و أهرب إلى الشعر بعيداً عن طيفي الذي تركني و ذهبَ يراود الفراشات السياحية عن لياليها..
البياض يكشفُ عجزي يا صديقي..يفضحني..ينفرُ من شخصياتي..فلا يسمح لها بالدخول إلى أرض مواجعه..لماذا ورطتني يا صديقي؟.
امسكتُ سماعة الهاتف..قررتُ أن أتصلَ بصديقي صاحب الصحيفة و

أحلف له بأغلظ الإيمان..بأني فشلتُ.. جريت..إشتريتُ ثلاثَ علب سجائر..دخنتُ كثيراً..أغلقتُ بابَ غرفتي..و وضعتُ في أذني نوعاً من القطن يمنع عني ضجيج الجيران و خلافاتهم المستمرة حول أهداف الحرب الأخيرة..لم أفلح في شيء..

رغم القطن سمعت صوتاً..أعرفُ هذا الصوت..

" جئتُ لأنقذك..لم أجد فراشات سياحية و لا حتى جرادة!".

" أنتَ فشلتَ أيضا و عدت".

" عدتُ ومعي الحل..ستكتب القصة".

- كيف أيها الطيف المشاغب؟

-تذكرْ قصة فيلم عربي.. و يمكن أن تمزجَ بداية فيلم مع نهاية فيلم ثم تختار الشخصيات من فيلم ثالث..

-لا أفعل ذلك..سأتهم بالسطو الأدبي..

-عديدون من الكتاب يفعلون ذلك..أنا صديق لأطيافهم..ينقلون لي كلَّ أسرارهم و فبركاتهم..

- أرجوك..أتركني..إذهبْ و شاهدْ نشرةَ أخبار عربية..ثم تتركني..و أخذتُ أفكرُ..و بداتُ أكتب..أمزقُ..أكتب ثانية..الورقُ يطردُ كلماتي..الكمبيوتر يصاب بفيروس لم يعرفه أحد من قبل..لكني وعدت صديقي.. فتحتُ علبة السجائر الثانية..دخنتُ بشراهة.. شربتُ خمسة فناجين قهوة..توصلتُ إلى فكرة تشبه ما.. فكرة طيفي التي سبقَ لي أن رفضتها..

شاهدتُ الطيفَ يغلقُ التلفاز.. ثم مدَ يده الصيفية على علبة

سجائري..أخرجَ واحدة..أشعلها بزفرة.
قلتُ:- وجدتها!.
قالَ و هو ينفث الدخان في وجهي: -لا أصدق..سيغضب صديقك و لن تكتبَ قصة..
-: إجلسْ على الكرسي قربي و اسمع هذه.. :
- رجلٌ يحبُ زوجته الجميلة..ثم يكتشف بالصدفة أنها تتخابر مع جهات معادية لنظام بلده..يعيش في صراع..هل يُبلغ عنها السلطات أم يحافظ على عائلته؟..لكنه أخيرا بعد طول تردد و سهر ليالٍ و قلة نوم و عذاب..يذهب إلى المخابرات و يخبر عن زوجته..يرحبون به..و يستعد للحصول على وسام مكافاة نظير خدمته لأمن البلد..و فجأة، ينتبه الضابط إلى الكنزة التي يرتديها فيجد الرجل نفسه معتقلا..يتعرض للضرب..للتعذيب..لا يعرف السبب، يفقد وزنه..يصاب بمرض خطير..يُجبرون على أخذه إلى المستشفي بعد أن عرفت وسائل الإعلام بالخبر و انتشرَ.. و تدخلت منظمات حقوق الإنسان..
في المستشفى و قبلَ أن يلفظَ النفسَ الأخير.. يجد الضابط في جواره، يسأله عن سبب تعذيبه بدل من مجازاته..فيقول له الضابط:
-كان عليكَ أن تخلعَ كنزتك التي تحمل صورة أحد الزعماء الثوريين المعادين للوطن و للرئيس..قبل أن تأتي و تفتن على زوجتك و التي وجدت بالمناسبة بريئة، و لعلمكَ فقد طلقناها منكَ و أنت في السجن و هي متزوجة حالياً من قريب لي يعمل في شركة إسمنت كبيرة و مشهورة و..

. أحسستُ بالراحة..سأرسلُ للصحيفة هذه القصة كيفما كانت.. لن أصلحَ فيها أي خطأ..

نظرتُ في عيني طيفي العزيز و سألته:

-ما رأيك؟.

- قصة مملة و مكررة و مفبركة!.

" -هيك يعني".

" - أكيد..هلكتني".

" و أنت كسفتني..الله يكسفك. و خدعتني و خذلتني".

-مع السلامة.. سأنام.. وحدك المسئول عن الفشل..

فتحتُ علبة السجائر الثالثة..أخرجتُ القطن من أذني مزقتُ السطورَ التي حسبتها قصة.. و كتبتُ:

"آسف..صديقي..فعلتُ كلَّ ما في وسعي..لم أتمكن من كتابة قصة".

21

دثريني بالبلاد

ناديتُ عليها بصوتي..ثم ناديت بأحلامي..بصوتٍ مرتفع ناديت..خشيتُ على حكايتي تتبعثر أضلاعها في الشتات.فلا أعودُ قادراً على معانقةِ ينابيع السرد في جراحها..خفتُ عليها ..

جلستُ بقربها على الحصيرة..حدقتُ بأيام و طرقات و بيادر و بساتين موشومة على جبينها..ظننتُ أنها أسلمت الروح..لكنها فتحت عينيها و طلبتْ مني أن أُسكت أولاد الحارة الذين كانو ا يتصايحون و يلعبون خلف غرفة الصفيح..

قالت جدتي بنبرة خافتة:

" - دير بالك على حـالك يا أحـمـد.."سكّت القـواريط" بدي أمـوت بهدوء".

ثم أضافت بصوت أعلى قليلا:

- إســمعْ يا أحـمـد..يا ابني..إجلب لي بعض براعم لوزتي..دثرني باللوز..دثرني برائحة البلاد..

أحضرتُ من" الحاكورة" بعضَ الأوراق و البراعم اللوزية ..لم أرغب أن أُخبر جدتي في هذه الساعات الحزينة, بأنها تتحدث مع حفيدها ابن أحمد.

حضرَ والدي من العمل.و علمَ بحال جدتي..وقفَ مشدوهاً .. رأيته يبكي للمرة الأولى.
-سلامتك يا حاجة خضراء..سلامتك يا حجة..
لكن الحاجة خضراء لم تُكتب لها السلامة..و ضعنا ذاكرة اللوز و أريجه فوق صدرها..ثم ماتت جدتي.
لم أنس القصة مع مرور الغَصات.. و صرتُ أمضي معظم أوقاتي و أجملها جالساً تحت الشجرة، أكتبُ تحتها، أنامُ، أفكر، أقرأ في ظلالها سيرةَ الخيول و الفرسان و الثورة والرحيل..
ذات يوم..خطرت ببالي فكرة سببها التناقض في رواية الغرس بين والدي و جدتي.
قلتُ:- أخذها اللوز و رحلت..لكني أريدُ أن أعرفَ بوضوح من زرعَ غصن اللوز فصار شجرة و أرجوحة لأفكاري.
كنتُ أعرفُ بستانياً يدعى" أبو الأخضر" له باع طويل في زراعة و تقليم اللوزيات و الحمضيات، حملَ خبرته من أيام البلاد إلى أحزان المخيم..
ذهبتُ إليه و أخبرته عن الحكاية، إبتسمَ لي و قال:
-بسيطة..سأرافقكَ إلى بيتكم ، فأخبركَ عن زارع شجرة اللوز .
جاءَ الرجلُ.و تفحصَ الجذع.. و تحسس الأغصانَ..و فركَ بيده بعض أوراقها.. و تذوّقَ بواكيرَ ثمارها و اقتربَ مني و قال:
-إسمعْ يا ابني..لم يكذب أبوك.. و كانت جدتك الخضراء أيضا صادقة ..الواقع أن جدتك هي من أحضرت الغصن الصغير من حقلكم في فلسطين، يوم النكبة..أما والدك فقد قام بتطعيم الشجرة الصغيرة،

آنذاك. بغصن أحضره معه من جبل لبنان..

سألتُ مستغرباً:

- هل أنت متأكد يا عمّ؟.

- زجرني بنظرة صقرية و صاح:

- طبعا..أنا خبير..ألم تلاحظ اختلاف المذاق و نكهة حبات اللوز؟..ألم تلاحظ إختلاف حجم التمرات.كلها حلوة و متنوعة..أنظرْ إلى نسبة الظلال بين التجربتين..ثم أضاف:

-لا تقلق على الشجرة..إذا أحببتَ أعطيتكَ فرعاً رائعاً أحضرته معي من سوريا.. و هنالك فروع جميلة من المغرب و الخليج و من العراق.. و من مصر..كما تريد..

هتفتُ بفرح حقيقي:

-أريدها كلها يا عم..في شجرتي..شجرتنا أقصدُ.. شكراً لك يا عم" أبو الأخضر" أنا بانتظار عطاياك..

لا أعرفُ كيف وجدتني أرددُ في سري بعد انصراف الرجل:

-أنا الذي زرعتُ شجرة اللوز و لدي شهود على ما أقول.

22

زمن الصقور

قالَ خالد الأشقر بن العشرين ربيعاً:" نلتقي على ضفاف نيلنا يا أصدقاء..و لن أتاخر أكثر من ساعة..سأصلح السقف في البيت"
لم يرد عمران الساخر الشجاع أن يمر الموقف دون تعليق و قال لخالد الذي كان يهم بالإنصراف: إغلقْ كلَّ ثقوب سقف شهوتكَ بإحكام! و إياكَ أن تتعرضَ لتيارات الهواء الباردة بعد أن تستحم!.
لم يجب خالد و تابعَ طريقة بخطوات سريعة نحو بيته المحاذي "للنيل"..
لكنه التفتَ فجأة وبسرعة إلى الوراء و ألقى صوب عمران بحصاة..تجنبَ عمران الضربةَ ثم قال:
"- اهي حبكت ..شو صار لو إستنى شوية" و لم يستمع خالد إلى التعليق الأخير..
كان قد مضى على زواج خالد ثلاثة أسابيع..استخدمَ فيه " حجة" تصليح سقف البيت عشر مرات.. و كنا نعرف أن هذا حقه.. و أن هذا هو الوقت الوحيد و المسموح سرقته من روزنامة المهام النضالية الصعبة.
بعد ساعات يأتي الليل، تُوضع الخطط، يتم توزيع الكمائن و يصبح

المبـيت في المنزل عسـيـراً على المطلوبين و المناضلين. لذا اعتـدنا أن نقضي كلّ حاجاتنا اليومية و الشخصية في ساعات النهار الأبيض.. و كنا نتناوبُ على الجلوس خلف حجارة كبيرة قرب المجرور الكبير و غير المسقوف و المكشوف للأوساخ و الجراثيم و مختلف الأمراض الوافدة و المحلية.. و كان هذا المجرور الكريه ذاته محط تندر الشباب و كتعبير عن المرارة و الاستياء أطلقنا عليه اسماً يتناقض تماماً مع واقع الحال.. إذ دعوناه" بالنيل".. و أين هو بكل مفاسده و حشراته و رائحته المنفرة من النيل العظيم؟.

هذا كان نيلنا بكل مشاكله التاريخيـة المزمنة..نيلنا الذي طالبنا بسقفه و إصلاحه و تنظيفه من القاذورات ألف مرة..و كم من عريضة احتجاج قدمناها للمسؤولين..و كم من شكوى ارتطمت بجدار اللامبالاة..

أمـا الذين يملكون السلطة و المال و الإمكانات في المنظمة. فقد تجاهلوا الموضوع .. و أكدوا أن لا حاجة لوجودنا قرب هذا ال"نيل" المتسخ بعد الانتهاء من مفاوضات الحل النهائي..

بقي" النيلُ" على حاله ينتظرُ يداً تصلحه.. و ظلّ محطة انتظار و مراقبة لتحركات الأعداء.. و لعل فائدته كانت تكمن في أن رائحته تزكم أنف العدو..فلا يدنو من مرابضنا..إلا بمساعدة أوساخه و توابعه..

بعد أسبوع واحد فقط تزوج عمران. صاحب التعليقات اللاذعة. من قريبته.. أقمنا له حفلاً جميلاً متواضعاً..و ساهمتُ أنا بعد إلحاح من الشباب في رقصة"طل سلاحي من جراحي".

كان عمران أمهرنا في إصابة الأهداف و كان خبيراً في صنع العبوات الناسفة..و لم يكن بمقدورنا الاستغناء عنه..أكثر من ثلاثة أيام.. كما أنه كان يحمل في رأسه خطة لإصلاح" النيل" و تقويم حالة جريانه البطيئة و المعرقلة..

يوم زفافه..كنا كعادتنا نقف بجوار المجرور النيلي..و كانت هذه فرصة لخالد الأشقر كي يردً..فرأيناه يدور حول نفسه بحركات أشبه بالرقص و يصيح:

انظروا إلى الماء الأسود في المجرور..تأكدوا من المصدر..المصدر واضح.. و أشارَ إلى بيت عمران الساخر الجريء..

قال حسن: نحنُ لا نشاهد أي شيء جديد.. كل شيء على حاله..كما نعرفه..

أجابَ خالد بسرعة: صحيح..أنت على حق..الجديد في الموضوع, هذه النقاط البيضاء تطفو فوق سطح المعاناة السوداء.. و أشارَ إلى المجرور"النيل"

ضحكنا..بعد لحظات كان عمران يقف فوق رؤوسنا.. مرتدياً بدلته الخاكية.

أخذَ ينظر في وجوهنا كأنه يرانا للمرة الأولى..

قالَ بصوت أقرب إلى الهمس: بعد نصف ساعة ستسمعون صوت انفجار دبابة صهيونية عند مفرق المخيم..

نظرنا إلى بعضنا البعض مدهوشين, غير مصدقين..ثم أخذنا ننظر إلى ساعاتنا..لم يُعرف عن عمران الكذب و ادعاء البطولة..كان مشهوراً بصدقه..لذا ألقى الصمت فوق رؤوسنا ظلالاً برتقالية..أخذنا نترقب

الحدث..

- ما بكم..ألا تصدقون؟..بعد دقيقتين فقط تسمعون الحكاية..

- قلتُ لعمران: أين أمضيتَ ليلة الدخلة؟ لم يجبني..

وحده الانفجار كان يجيب..أخذنا نعانق عمران..البعض كان يصفق..

قال حسن: شكراً على الهدية يا عمران..

بعد دقائق كانت وكالات الأنباء تتناقل خبر العملية البطولية في المكان الذي حدده لنا عمران..

إقتربَ مني عمران..كان يبدو صارماً جاداً..لم يعد ذاك الساحر, وضع يده على كتفي و سأل:

متى نستطيع الانتظار قرب نهر حقيقي نظيف..لا مفاسد فيه و لا مخاطر ولا أوبئة؟

قلتُ: قريباً.. و أخذنا نغادر المكان..نحو مهمة جديدة.. و بدأنا نحلم بالوصول..

أما علي الصامت الكبير بيننا و القائد المتواضع فقد هزّ رأسه موافقاً و تقدمنا في المسير.

23

سوق الأحلام



كان أقرب الأصدقاء إلى وريدي..يجلبُ لي إشارات القرنفل و الياسمين في عينيه. يرتبها باقة باقة. يضعها في كفي و ما تبقى منها يضعها في جوارير الصبر و فوق أحد الرفوف في مكتبتي..فأعود إليها كلما ضاقت بي المسافات و ضقت بها و رغبتُ في أن أضعَ بعضَ القمحِ في طاحونةِ السردِ القروي.

كنتُ أخاف عليه. لا أتحدثُ معه أمام الناس. لا أتركه وحده في البيت. و حين يمرض أداويه بالأعشاب و بحكمة الجدات و وصفات الزمن الراحل..ثم التفت إلى نفسي و آلامها و أتناول جرعة من يديه..

و كان يضحك.. عندما يبدأ بالسعال ثم يراني أتابع الوصلة ذاتها على إيقاعات العدوى و الانتشار...

لم أتخيلني أعيش دون صحبة هذا الرفيق..لم يكن بمقدوري أن أطمئن على قمر سواه يصحبني أوقات الشدة و الرجاء و في حالات الغضب و الصراخ. في الصحو ..في النوم..في الركض.. في المشي.. في مطاردة الصور اللوزية.. و في مواجهة الذئاب..

كان وفياً. مرشدي في الظلام. عكازي كلما تعثر جموحي و اصطدمَ بصخور معادية..

في اليوم الأخير الذي سبقَ رحيله.. شاهدني أرتجفُ من السخط و

من برودة الجهات العابثة..خلعَ معطفه بسرعة، غطاني. بقيتُ أرتعش و اتمتم بكلمات هاذية..إستأذنني لساعة و عاد يحمل حزمة من الحطب على كتفيه..إبتسمَ لي..إحتضنني. و أشعلَ الموقدَ..أبصرتُ دموعه ، كان يحاول أن يخفيها عني بيد الرؤيا.. كان هو الآخر يرتجف من الأسى..كان يكابر..لا يريد أن يُظهرَ مواجعه و يكشف ذبوله أمامي مباشرة..

إقتربَ مني، ضغطَ على جبيني، ابصرتُ غيوماً داكنةً تخرجُ من رأسي..قال:-" هل تستطيع أن تكملَ وحدكَ الطريق دوني"

تظاهرتُ بعدم السماع..كرر السؤال الصاعق..حاولتُ أن أبدو رابط الجأش، حتى لا أرى حلمي ينهار، دون أن أجيبه عن سؤاله. تماسكتُ و قلتُ لحلمي-:" أنت الطريق..فـــهل تراني وجـــودي مع وقت الصلاة..وصلت إلى منصة البائع السمين الدميم..أخرجتُ حافظة نقودي و قلت:" من فضلك..أريدُ شراءَ ذاك الحلم الأخضر" حدق بي..كانت نظراته تشبه نظرات الغزاة..قال لي:" أي حلم تريد..إسرع ، تكلم ، هيا.."

":- الحلم الأخضر. على يمينك، إذا سمحت".

":- أنت مصاب بعمى الألوان..هذا الحلم الذي تشير إليه أسود مثل القطران"

::- حسناً، أسود أسود.. المهم أن أحصلَ على حلم يعوضني عن صاحبي الراحل.."

و دفعت نقودي كلها.. و فوقها ساعتي و خاتم زواجي.. و أخذتُ الحلمَ..و حملته على ظهري.. كان ثقيلا..لزجاً..محشواً بما يشبه

الزجاج و الحديد..و قبل أن أغادر السوق. سقطَ الحلمُ الغريب عن ظهري..تجمَّعَ حولي الناس.. بعضهم كان يهمس، آخرون كان يبكون..أكثرهم كان يضحك دقيقة ثم يبكي بقية الوقت..تركتُ الحلم الأسود ملقى على الأرض.. تدوسه السابلة..

اشعلتُ سيجارة.. و سألت رجلاً مُسناً كان يقف إلى جواري:" يا عم..قل لي ..ما هذا الحلم الكريه الذي اشتريته..لا يشبه حلمي الجميل في شيء.."

أجابَ مبتسماً.. بمرارة.." هذا سوق المغفلين..كل الأحلام الموجودة في هذه السوق، كوابيس برسم البيع".

قلتُ له:" لكني فقدتُ.. و أريد.."

لم يدعني العجوز أكمل جملتي فقالَ قبل أن يودعني منصرفا:" حلمكَ في الأسر، و سيخرج إلى النور..أنتَ تحتاج إلى شراء تجربة.. و لست بحاجة إلى شراء حلم".

ومضيتُ أبحث عن تجربة..

24

شرف عميل

إحتشدنا في الغرفة الصغيرة الضيقة, في بيت صديقنا " علي", كنا سبعة أصدقاء في عمر الفراشات و الغضب, ننتمي إلى تنظيمات فلسطينية متعددة, أخذَ البعض منا يستغيب صديقنا الغائب عن مجلسنا ," رفيق" الذي أطلقَ النار على قطة أثناء نوبة حراسته, خارج المخيم. ظناً منه ان هجوماً صهيونياً قد وقع..و سط تموجات التعليقات الساخرة, خاصة ممن ليسوا في مثل شجاعة رفيق..تدخلتُ , مدافعاً, و ذكرتهم بدوره البطولي , حين كان أول من تصدى إجتياح الخنازير, الشهر الماضي.

قلت لهم:- يا جماعة..مرة بتصيب و مرة بتخيب..

إقتنعَ معظم أفراد "الشلة "بكلامي..ما عدا الأخ" فايق" الذي مسحَ بظهر يده الغبار العالق ببذلته السوداء التي لم تكن مناسبة لأجواء المكان و الزمان و الغرفة و المقاعد القديمة و المستعملة ..نظرَ إليّ موجهاً حديثه و قال:

- كيف لم يستطع صاحبك أن يميز بين مواء القطط و دبابات و طائرات العدو..ثم أضاف: أنت تدافع عنه لأنه معك في التنظيم..

تجاهلتُ الأمر.. و أخذتُ أنظرُ في ساعتي القديمة التي ورثتها عن المرحوم جدي..

سادَ صمت مطبق لدقيقة أو دقيقتين..فإذا بصديقنا "خالد" يقف

فجأة، و يتقدم من فايق، ممسكاً به من ربطة عنقه .. فتأزّمَ الموقف، و علت الأصوات..و حضرَ " أبو علي" و وزعَ علينا شتائمه" التراثية" بالتساوي و ثم طردنا من الغرفة إلى الشارع..فمضينا نجرجر أمانينا و انكساراتنا الأولى صعوداً إلى تلال الزيتون و السرو الحارس في الجوار، بعد أن أصلحنا بمفردات الألفة و الصحو بين خالد و فايق..

جلسنا تحت شجرة الزيتون الكبيرة، نتحدث في شؤون جراحنا و مواجعنا..و كان الافتخار بما يقوم به البواسل سيد الحاضرين في كل جملة اعتزاز..

فوجئنا بفايق ينتقد الفصيل الذي ينتمي إليه خالد، متهماً إياه بعدم ممارسة الكفاح المسلح مثل بقية القوى و الفصائل و الكتائب..

إستشاطَ خالد غضباً و قال :- إسمع يا فايق! لقد اعتذرتُ منكَ و قبلتَ اعتذاري..لكني دعني أسألك و بصراحة أمام الجميع..عن علاقة الحب التي تربطك مع" فاتن" ابنة العميل الهارب" أبو نافذ البطيخات"

أحمرَّ وجه فايق..و أخذَ يتشاغل بليّ غصن من شجرة سرو كان قد قطعه و نحن في الطريق..

قال صديقنا محسن: " إنه يسألك لمَ لا تجيبه دون زعل و مشاكل و استفزازات !"

-قضية خاصة و خلص!.

علّقَ "صادق" قائلاً: - "لا مش خلص..قول مثلاً هي شي و أبو ها شي ثاني.."

لم يجب فايق..الذي أخرجَ سكيناً صغيرةً و بدأ ينزع القشور عن الغصن الصغير.

أُستفزَّ" جاسر" مثل الآخرين من صمت فايق و ألقى بقنبلة جديدة:-
عندي معلومات مؤكدة عن تورط أخيها في سرقة و تهريب السيارات..
تقدَّمَ أخي" محمود" المعروف بتدينه من الأخ فايق و ابتسمَ له و قال بهدوء:
- كما جاء في الآية الكريمة:" لا تزر وازرة وزر أخرى" فاحتمل أصدقاءك..و اشرح موقفك..
-أجاب بنبرة حزينة و أكثر هدوءاً:- "شو بدي أشرح يا زلمي..خليها مستورة"
قلتُ-"احكي , فضفض..باين عليك مهموم"
قال فايق:- إسمعوا يا جماعة..البنت خطيبتي..خطبتها من أمها و خالها..و لم نذع الخبر..و لم نقم حفلة.. تمَّ الموضوع بسرية..لأن تهديداً قد وصلها من أبيها" البطيخات" الخائن.. بسبب علاقتها بي..و لمعلوماتكم أيضا , خطيبتي" فاتن" تعمل في المقاومة..و هي ضحية ..
أخذنا نتعذر له..و عانقناه الواحد بعد الآخر.. و كان خالد أول المعانقين.
بعد أسبوع قرعت أجراس الحادثة..أرسلَ أبو نافذ البطيخات أحدَ شركائه العملاء واغتالَ فاتناً , برصاصات أطلقها عليها حين كانت تقف على الشرفة في المخيم, تنتظر خطيبها فايق.
و أشاعَ العميل أبو نافذ البطيخات أنه قتلَ ابنته انتقاما " لشرفه"..
ملاحظة: الأسماء الواردة في هذه القصة هي من وحي خيال الكاتب.

25

الفلسطينيون

كانوا خمسة أصدقاء في سن الجراة و الاقتحام، يجمعهم عشق الوطن و الكتابة. جلسوا تحت أشجار المكان يتحدثون في شؤون أحلامهم و أحزانه.

أخذَ كلُّ واحدٍ منهم يحدث أصحابه عن فكرة القصة التي يطمح في كتابتها..

قال "وليد": قصتي ستكون عن دائرة الخنوع التي تتسع خيانات و أنظمة و كوارث..

قال" عمر": أما أنا فسأدخل إلى قلبي مباشرة و من هناك سأجد حكاية عن حبيبة بلغتْ من الورد عشرين حديقة و ما زالت تنتظرني في البلاد

أما الثالث و اسمه" عاطف"، و كان أكبرهم سناً، قال: قصتي ستدور عن الشهداء.. عن أجيال القرنفل و الملاحم الأسطورية لنسور الوطن.

إبتسمَ" سعيد" صديقهم الرابع ثم قال: سأكتب عن تجربة المنفى و الشتات.. عن دمنا الذي ينتظر حلم العودة.

"مفيد" الأصغر سناً بين رفاقه ، نظرَ إلى السماء و قال: أتركوا لي الكتابة عن الانتصار..

جرى الاتفاق فيما بينهم أن ينجزَ كل قصته و يسردها على الآخرين بعد أسبوع، و حددوا مكان اللقاء تحت سنديانة المعلم" فوزي".

في الموعد المقرر حضروا جميعهم في وقت واحد تقريبا..
شرعَ "مفيد" في القراءة..فإذا به يروي قصة عن حبيبه..أصغى الجميع باهتمام..لم يقاطعه أحد..لم تظهر علامات استهجان.
و عندما جاء دور" عمر"...قرأ قصة عن عجز الأنظمة و الخيانات الرسمية..لم يعلق أحد.. بل أكتفوا بالتصفيق.
أخرجَ " وليد" دفتره الصغير و قرأ قصةً جميلةً عن بطولات وتضحيات شعبنا. فنالَ استحسان زملائه.
تلاه" سعيد" الذي روى حكاية مؤثرة عن حق العودة إلى الديار السليبة...فحصلَ على رضا رفاقه..
لكن صديقهم" عاطف".. الذي أسندَ ظهره إلى جذع السنديانة. فقد ظلَّ صامتاً..
سأله "مفيد": أين قصتك؟ و هل كتبتَ شيئا؟.
لم يجب "عاطف"..لكنه أخرجَ من جيوب سترته مجموعة من الأوراق و الأقلام. و أخذَ يوزعها على أصدقائه ثم أزاحَ غلالة صمته و قال:
- فكرتُ أن أكتبَ عن الانتصار..لكني رأيت أن نشتركَ كجموع في كتابة هذه القصة...فلا بد أن تكون رائعة.
و شرعوا في الكتابة.. و ما زالوا يكتبون.
كانوا خمسة أصدقاء في سن الجرأة و الاقتحام. يجمعهم عشق الوطن و الكتابة. جلسوا تحت أشجار المكان يتحدثون في شؤون أحلامهم و أحزانهم.
أخذَ كلُّ واحدٍ منهم يحدث أصحابه عن فكرة القصة التي يطمح في

كتابتها..
قال "وليد": قصتي ستكون عن دائرة الخنوع التي تتسع خيانات و أنظمة و كوارث..
قال" عمر": اما انا فسأدخل إلى قلبي مباشرة و من هناك سأجد حكاية عن حبيبة بلغتْ من الورد عشرين حديقة و ما زالت تنتظرني في البلاد
أما الثالث و اسمه" عاطف"، و كان أكبرهم سناً، فقال: قصتي ستدور عن الشهداء.. عن أجيال القرنفل و الملاحم الأسطورية لنسور الوطن.
إبتسمَ" سعيد" صديقهم الرابع ثم قال: سأكتب عن تجربة المنفى و الشتات.. عن دمنا الذي ينتظر حلم العودة.
"مفيد" الأصغر سناً بين رفاقه ، نظرَ إلى السماء و قال: أتركوا لي الكتابة عن الانتصار..
جرى الاتفاق فيما بينهم أن ينجزَ كل قصته و يسردها على الآخرين بعد أسبوع. و حددوا مكان اللقاء تحت سنديانة المعلم" فوزي".
في الموعد المقرر حضروا جميعهم في وقت واحد تقريبا..
شرعَ "مفيد" في القراءة..فإذا به يروي قصة عن حبيبه..أصغى الجميع باهتمام..لم يقاطعه أحد..لم تظهر علامات استهجان.
و عندما جاء دور" عمر"...قرا قصة عن عجز الأنظمة و الخيانات الرسمية..لم يعلق أحد.. بل أكتفوا بالتصفيق.
أخرجَ " وليد" دفتره الصغير و قرا قصةً جميلةً عن بطولات وتضحيات شعبنا. فنالَ استحسان زملائه.

تلاه" سـعـيـد" الذي روى حكاية مـؤثرة عن حق العـودة إلى الديار السليبة...فحصلَ على رضا رفاقه..

لكن صديقهم" عاطف".. الذي أسندَ ظهره إلى جذع السنديانة, فقد ظلَّ صامتاً..

سأله "مفيد": أين قصتك؟ و هل كتبتَ شيئا؟.

لم يجب "عاطف"..لكنه أخرجَ من جيوب سترته مجموعة من الأوراق و الأقلام, و أخذَ يوزعها على أصدقائه ثم أزاحَ غلالة صمته و قال:

- فكرتُ أن أكتبَ عن الانتصار..لكني رأيت أن نشتركَ كجموع في كتابة هذه القصة...فلا بد أن تكون رائعة.

و شرعوا في الكتابة.. و ما زالوا يكتبون.

26

قبعة حمراء

على عجلٍ. تناولتُ فطوري..و أغلقتُ تلفاز الأنباء الحزينة. و أسرعتُ إلى موقف الباصات القريبة من منزلي.. كي أصلَ باكراً معهدَ الشعر و القصة. و أكون أول شخص يلقي تحية الصباح على إنغريد.

الثلجُ ينهمرُ فوق رأسي..ستأتي الحافلة بعد قليل. أشعرُ بالبرد. فما كان عليَّ أن أترك رأسي مكشوفة عرضة للريح و الأفكار العاصفة و النظرات المستطلعة..

تأخرَ الباصُ على غير عادته. كما أنني نسيتُ ارتداء قبعتي الزرقاء على غير عادتي.. و أخذتُ أتذكرُ تاريخي مع القبعات منذ أن كانت خاكية و مموهة و بسيطة إلى أن حولها الثلج و الرحيل و الأسى إلى ملونة و إفرنجية..

و أمام لسعات البرد.. قررتُ أن أؤجلَ حديثَ النهرِ و المخيم و البساتين.. و أفكر في مشكلة الباص الذي سيؤخرني عن دخول الفصل و استعراض مواهبي الخيالية في ساحة للمبالغات شبه خالية من الفرسان..

إمرأة . أراها في الموعد ذاته كل يوم. تنتظر الحافلة مثلي. تتوقف فجأة عن إرسال ابتساماتها الصباحية..يبدو أنها اكتشفت حيلتي و

انني اكبر مما هي تتوقع..براس اصلع..
و لعلي خيبت املها..تحدق بي كأنها تعاتبني، كأنها تقول في لهجة معاتبة:" لماذا خدعتني كل هذه المدة و جعلتني افكر بكَ كصديق محتمل لرغباتي؟.."
ها هي تكتشف أن صداقتنا المفترضة ينقصها بعض الشَعر..
اتجاهلُ المرأةَ.. و انظرُ إلى عجوزٍ تبوسُ كلبها في منتصف الشارع..
الساعة الثامنة و النصف.. لم يحضر الباص..أسئلةٌ تخرج من جيوبي حائرة..تصطدم بالشجر القريب من موقف الحافلات، الريح عاتية.. قد تنقل اسئلتي إلى امكنة اكثر اماناً.
تداهمني فكرة قصيدة.. أسعلُ ثم اتناول القلمَ بسرعة و ادونها.. أكملها فيما بعد و اقرأها لإنغريد في الصف..فهي الوحيدة من بين خمس زميلات التي تتعاطف مع جرحي..
..اتذكرُ استاذَ مادة الأدب" يسبار" و ابتسمُ حين اتذكرُ زوجته الطويلة جداً..يسبار اصلع أيضا ، لكنه لا يرتدي قبعة مثلي. بل إنه ينتقدني و يعتبر إرتداء القبعة من علامات الانسحاب الذاتي من ثقة في النفس مفترضة..يا لحظي كيف نسيتها؟.. سأعود إلى البيت و احضرها..سأقول ليسبار:-" تأخرت بسبب نسيان قبعتي، انت تعرف ذلك" و سيرد هامساً "-: و انا حضرت قبلك بقليل لأني تأخرت بسبب الطقس السيء و طول السرير.."
يؤثر الثلجُ المنهمر بكثافة على اتجاه قراري.. فيدفعه إلى التراجع.. أشعرُ بالدوران..
المرأة التي اكتشفت صلعتي ، تنظر إليّ.. ثم تنظرُ في ساعتها و تطلقُ

زفرةَ احتجاج على تأخر الباص..
لم يأت الباص بعد..لكني لا أشاهد المرأة.. ما زلتُ انتظر قدوم الباص..لعله مرَّ و لم أنتبه.. و كنتُ منشغلاً بينابيعي..شردتُ بعيداً..
يأتي الباص أخيراً..الساعة التاسعة تماماً.. تأخرتُ عن الفصل، و عن عيون إنغريد و حديقتها الخضراء.. أصعدُ الباص بقفزة.. ينظرُ لي أحد الرجال باستهجان..أجدُ مقعداً خالياً بجوار فتاة جميلة و صغيرة ..أجلسُ ..
أمواجٌ من الذهبِ البضِ تجلسُ على بعد لمسةٍ من كفي..أشعرُ بالتحسن..
الرجلُ الأبيض الذي زجرني بنظرة لا تخلو من عنصرية..يتظاهر بقراءة جريدة..
أُخرجُ ورقة من محفظتي..أنظرُ إلى عينيها و اكتبُ بحروفٍ عربيةٍ بارزةٍ..ترمقني بهلالين زرقاوين " ماذا تكتب..شعر. .قصة؟ ".
"- عن عينيك اكتبُ في كلِّ الأنواع و الأجناس الأدبية وغير الأدبية"
تضحك.. و تنعتني بالجراة..أنعتها بالجمال و الجاذبية.. تعلو ضحكتها..بينما تغزوها نظرات غاضبة لخمسة رجال و أربع نساء، ثم يتركز الغزو على كامل كياني..فلا أتنازل..
اتوقفُ عن الحديث..أنظرُ من خلال الزجاج..أسافرُ في حلم.. يغمرني رذاذ التهيؤات.. أركضُ معها على رمل البحر..آخذها إلى جذوري و مدن أحلامي.. تهزُّ رأسها و تبتسم..
تنزلُ الفتاةُ الجميلةُ من الباص قبلي بمحطتين ..تقول لي قبل مغادرتها:" على فكرة، صلعتك جميلة مثل صلعة والدي الذي أحب".

أصمتُ و أتوارى في مجاهل الشرود النرجسي .." لو أنها معي في الفصل..أستبدلها بإنغريد.. أو أحتفظ بالاثنتين معاً..و هذا أفضل.
يأتي مفتش الباص.. يسألني عن التذكرة:
-آسف نسيتُ قبعتي في البيت.
-ماذا تقول؟ أريد التذكرة..
-نسيت.
سأسجلُ ضدكَ مخالفة..
-سجّلْ..
توقفَ الباص.. نزلتُ. ذهبتُ راكضاً إلى المعهد..وصلتُ لاهثاً..دخلتُ الصف.. ألقيتُ تحيةَ الصباح على إنغريد و المعلم و بقية الزميلات و الزملاء.. و بدأتُ في كتابة التمرين الصباحي..
نظرتْ إليَّ إنغريد..ثم قالت:
- هل تراكَ تأخرتَ هذا اليوم ، لأنكَ اشتريتَ هذه القبعة الحمراء التي ترتديها؟ هذه تناسبكَ أكثر من الزرقاء التي كنت ترتديها بالأمس.
و ضعتُ يدي على رأسي..اكتشفتُ أنني أرتدي قبعة حمراء كما قالت إنغريد .
و بدأ الدرس.

27

كهف الذاكرة

كان قمراً من أيام اللوز، مرح الضوء، أشعلَ كلَّ ميادين و أزقة الساعات، وممرات البســاتين، بين قطف ثمار التوت و أكواز الرُمَّان و حبات البرتقال. كان الوقت الذي يلي المدرسة لتحديد ثغرة و فتحها في الشريط الشائك، يعبر بعدها الصبي مع أقرانه لقطف الفاكهة و صيد العصافير التي كانت تبني أعشاشها فوق أشجار السرو، و كانت الخدوش البسيطة التي تصيبنا في محاولات اختراق الموانع و الأسيجة و الجدران لا تذكر مع فيض العناقيد و القطوف و أنواع الفاكهة و لذائذ التجوال.

أخذَ عاطف يحدثني عن أيام و طرقات و وديان الذاكرة الأولى.. التي لم يكن بمقدورها أن تثمرَ بلا هذه المغامرات و السرقات الصغيرة.

- لو لم نلتحق بالتنظيم في هذه السنة المبكرة.. ..لمشينا في هذا " الكار " إلى بقية عمرنا و لأصبحنا من كبار اللصوص، بحق!

و كنتُ أجيبه و أنا انظرُ إلى المسدس الذي يلمعُ بين يديه:- لكن، هنالك من أصبح من كبار اللصوص و الفاسدين من داخل الكارات.. و في سراديبها..

و كان عاطف يرد عليّ هازئاً بعض الشيء:-"يا رجل! إحنا أحسن تنظيم.. يمكن غيرنا دكانة و حرامية و صفقات و غيره يا سيدي".

"..-رأيك؟".

" و رأيك كمان..شو مش مقتنع؟ ".

لم أعلق.. كتمتُ صرخة و اقتنعت بالمحاولة. أخرجتُ رأسي من النافذة الصغيرة و أخذتُ أنظرُ في القمر عن صور زعماء..فلم أر أحدا..•

إستدرتُ نحو عاطف و سألته متهكماً:

"-شو ..القمر بيكذب"؟.

" -شو قصدك؟ مش فاهم..".

بلعتُ ريقي مع بعض التساؤلات المبكرة ولذتُ بالنجوم.

بينما انشغلَ عاطف في تنظيف سلاحه الفردي بقطعة قماش مبلولة بالزيت..

سادَ صمتٌ بيننا..إعتبرتُ نفسي مسؤولاً عن كسرِ حواجزه..

"-لماذا تنظف سلاحك في اليوم عدة مرات"؟.

ينهمرُ مطرُ الأسى بين كلماته . يهزَ مسدسه في الهواء . و بصوتٍ مرتفع يجيب:

"-هذا العالم متسخ جداً و لا يمكن لنا تنظيفه بدون أسلحة نظيفة.. جديدة. هل تفهم"؟.

أنظرُ إليه و ينظر إليَّ قبلَ أن أقول:-" أفهم!".

و قبل إتمكن من إضافة بضع كلمات لجملتي. يسألني:-".ألم تسرد لك جدتك الخضراء حكاية. مثل حكاية جدتي" ندى" التي رويتها لك يوم أمس" ؟.

أجبتُ و أنا أمسكُ بيدي بمفتاح الذاكرة الأولى:

"-..ما حدثَ لنا من تشريد و عذاب لا يحتاج إلى قصة..أما عن جدتي فلأحزانها و دروبها حكايات كثيرة..

" -على شرط أن لا تكون تلك القصة المعروفة عن زواج نزّال و رفضه إتمام حراثة الأرض قبل أن يجدوا له عروسا.."إسه إسه بدي أتجوز أو مفيش حراثة" حتى ذهبت مثلاً عن العناد و التصميم في كلام الناس عن جيزة نزّال" براس المعناة"!؟

قلتُ مازحاً:-"كلها حراثة في حراثة يا عاطف فرحان".

" -قولك! ، لكن الديكَ فعلا قصة جديدة لم أسمعها؟".

"- ملامح و تضاريس من سرد الجمر و رواية المسلوب".

قال :" إحكها إذن..ها نحن نتسلى قبل أن نذهب إلى الحراسة!".

قلتُ محتجاً:"-نتسلى يا عاطف! بطلت أحكي و خليك يا بطل وجود دائم زي أول!.."

" - إتركنا من المزايدة.. هون بالمخيم مع إبراهيم و صالح و علي و جمال أو برا بالمحور مع مفيد و سعيد و محمد و إحسان و أبو حبيب و سلطان.. كله وجود دائم على خطر متنقل.. و انتظار "

- لدغتني بعوضة في وجهي.. حككتُ ذقني : "طيب ، متفقين".

- و القصة؟.

" - قبل سنتين، أُصبتُ بإنفلونزا حادة..لم أُصب بمثلها سابقاً..إنشغلت العائلة على صحتي..و حضرت الخضراء بحبها و ادعيتها و مباخرها و بعض شتائمها الذهبية.. و بعد أن" خَرَّجَتْ" عليَّ و رقتني، غير مبالية باعتراضي و نظرات كنتها..و بعد أن تمتمتْ بكلمات أذكرُ منها" سايق عليك الله و الملك سليمان..أخرجي يا ملعونة من هذا المكان" استنتجتُ، بينما كانت أمي تسخر من إعلانها ، أن عينا قد أصابتني! و أكدت أن هذه العين الشريرة ما هي إلا عين جارتنا

المسكينة أم ياسين. فكانت أن صدرت لي الأوامر بعدم الحديث و الوقوف مع ابنتها سعاد! صحيح أني لم أستجب، فقد كانت لي مآرب اخرى".
- هنا قاطعني صديقي : " أعرف هذه القصة المبالغ فيها، إتركها و.أكمل رواية ستك خضرا!".
- إبتسمتُ، و أنا الوحُ بالمفتاح القديم قلتُ:" إسمع يا سيدي و سيدك الله! بعد أن انتزعت جدتي مني وعداً بعدم الوقوع في حبائل ام سعاد و خططها البريئة، لتزويجي من ابنتها، إستندتْ على عكازها الذي جاء معها من فلسطين، قررتْ أن تفتحَ كهفَ ذاكرتها امامي، لتدخلني فيه.. و حين فعلتْ ..إختلطَ عليّ الأمر و تعسرَ، وهي تحدثني عن اسماء "العليين"، أن التقطَ بسهوله درجة القرابة التي تربطني بكل منهم، أربعة أو خمسة من عائلتها يحملون الإسم ذاته" علي"..و إن كان أبرزهم علي نزال"قطينة" ذاك الرجل الذي برزَ كقائد فصيل أيام البلاد.. و استشهد مع ابنه صبحي في" لوبية" قرب طبريا عام ٤٨."
"أعرف قصة ثورة عمك علي قطينة ، اللي أصله مش من لوبيه" و من فضلك ارجع للقصة، لا وقت للتفاخر، لم يعد أمامنا متسع من الوقت لنكون جاهزين
"و لا يهمك يا زلمي" المغارة، كانت موجودة ..سمعتُ عنها من ابي، و كان تستعمل لتخزين المؤونة و إخفاء البندقية القديمة، و قيلَ لأغراض أخرى كلقاء العشاق او الإحتماء من المطر في أيام الشتاء.. و قيل أن هنالك أكثر من كهف في الموضوع..."
ظهرت علامات الضيق على صاحبي و هو يستحثني أن أنهي قصة جدتي.
"-إهدأ و دعنا نشرب الشاي .."

" - و يسكي الفقراء ! سنأخذه معنا .. و الآن أكمل، هلكتني
و ضعتْ جدتي يدها فوق جبيني، و أخذت تمسحه بقطعة قماش مبللة
بالماء البارد، و ذهبت بي إلى المراعي و السهول و الآبار و قطيع الماعز و
صَمّـًا و عنزة و طوباس و قبـاطيـا و طبـريا و لـوبيـة و الموت المبكر
"للعليين"..كانت كلمات الخضراء تنزل كقطرات الندى، تخفف من
وعكتي، وأحيانا أراها تتحول إلى رذاذ حسرات و مواجع..و مرارة فقدان
و تشريد. كنت أسعلُ و أفركُ أرنبة أنفي، فتـزداد مع كل خبـر حزين
حرارة جسمي و تبرد مع الخبـر السار. كدتُ أصدق بأني أصبت بالعين
لولا فشلي في استمالة قلب فتاة تعرفها سعاد، صديقتها الحميمة.
هزَّ رأسه و رمى رشقات استفزازية في ظهري:
"فشلت مع غيرها، أتذكر؟ سميحة، عذاب، حنان، لقاء، ياسمين..و
ذات العيون الخضراء، زميلتك في الجامعة ، ما اسمها؟، آه، دعد.. لم
تنجح في الحب إلاّ بعد أن تجاوزت العشرين، و بدأت أرقامك القياسية
تهل علينا..لم نكن معك، حين غادرتَ المخيم ثم عدتَ مصحوباً بأرقام
كـهـربائيـة.. "خلصنا يا زلمي" ها أنت تخـفـق حـتـى في سـرد حكاية
جدتك".
إمـتـقـعَ وجـهي، و صـرختُ بـه:"مش طالع معك على المهمـة، أنا مش
كذاب.. اليوم ما في حراسة، شوف أبو بشارة.. اليوم في صح النوم!".
" حقك على راسي، لكنكَ تخرج عن الموضوع، فأين القصة؟".
"لا يا عـــاطف ابن فـــرحـــان أنا لم أخـــرج، لكننا ننزف..في بريق
التداعيات.. و نحن نحكي القصة ذاتها."
"حسناً، و لكن عليكَ أن تتحرك معي ، معك دقيقة لإنهاء القصة".

قلتُ:" شو أوامر.؟ القصة لا تنتهي إلاّ بعودتي إلى جذور الخضراء.."
تنحنحَ و أخذَ ينقل مسدسه اللامع من يد إلى يد.
قالت جدتي:-"لم يكن جدك ممن يحبون التظاهر بالورع... و كان لا يدخل مسجد القرية إلاّ فيما ندر. الأمر الذي أدى إلى استهجان أهل القرية.. و حين وجهت له الانتقادات. و سأله الناس : كيف ستدخل الجنة؟ أجابهم دون تفكير: "ادخلُ. اتركُ حراس الجنة يحاسبون صاحبي" مفلح" و يتخاصمون معه. لأنه لا يصلي. فاستغلُ الخلاف.. و أعبرُ متسللاً إلى نعيمها".
فيقول له الناس:-"لكنك لا تصلي يا . . كان يلوذ بالصمت. و ينظر إلى السماء بعيون عسلية!".
تقول جدتي الخضراء:-و لما زادت حيرة الناس. أخذتُ أراقبه. لاحظتُ أنه يدخل الكهف , عدة مرات في اليوم الواحد. و يحمل معه أشياء ملفوفة في كيس قماش. حتى وجدناه يصلي وحيداً..
"- ماذا كان يحمل معه إلى الكهف؟. ماذا كان يفعل داخله؟" سأل عاطف.
اجبتُ:-"كان يصلي بانتظام. يصطحبُ معه. سراجاً. و سجادة صغيرة..علاقته مع الخالق سبحانه. كانت تتم من غير وسيط و شهود. كانت مباشرة."
"-لذا كان واثقاً من نفسه.. و هو يتحدث عن دخول الجنة خلسة"!.
"-لا تمزح. هو لم يقصد ذلك المعنى..يا خبيث!".
- و هل تقصده أنت؟.
- لا ..إسألْ جرحك.

28

لينا و البرتقال

و تذهب إلى جهة القصد مجبولاً بالترقب..قطارٌ في ذاكرتكَ يسير.. و أنتَ في القطارِ تمضي إلى جهة القصد.
لم يقدمها أحد إليك.. تمددت أضلاعُ دهشتكَ، فعرفتها بحواسك القروية.. و حين صافحتها تركتَ في يدها رسالة دافئة..لم تسحب يدها من يدك..إبتسمَ الأصدقاء..تهامسوا..
تقرأ مقاطعَ من جرحك و تترك ضاحية التمني و تقفل راجعاً إلى صرخاتك اليومية والشتات..
تحضر و تغيب..في ساعات البرتقال تراها..في أوقات التراجع و الحسابات الباردة تختفي..أفكار و أمواج و الرحلة لا تنتهي في أعماق السؤال.
تعود إلى مفكرة الدهشة و التوق. في التماعات الأسبوع المنصرم. و تنهمر لهجات صديقة من فضاء التوقعات المضيئة..تداعيات في القلب مسافرة في مقطورة هادئة.. ثم ما يلبث أن يأتي صخب مفاجىء و تداعيات حنطية و عشب على الذاكرة..
"ممنوع التدخين يا لينا..كيف بدي أحكي بلا غيم و حوافز..شو هذا يا لينا.. قهوة و شاي و خلص".

تجيبك بابتسامتها الشقراء و بلهجة فلسطينية:" هيك أحسن يا زلمي..يا الله حَضِّر حالك".

و تذكر عندما استأذنتْ و عادتْ تحمل في كفها برتقالة.

"- شو كمان هون في برتقان يا لينا".

"آه.شو مفكر..أنا فلسطينية! و هذا مش شغل الصهاينة".

"قاطعي الصهاينة يا لينا..و لا تقاطعي قلبي".

تضحك..و تتركني لترتيب قاعة المساندة.

تنتقل بنظراتكَ الطموحة بين البرتقال و زرقة عينيها و الاحتمال..

تبصر طيور التضامن مع شعبك قادمة من الشمال إلى الجنوب..تراها جوهرة في السرب القادم..تتخيل ماذا قالت" لينا" للغزاة حين اعتقلوها بالقرب من نابلس..

كان وقت إلقاء الصرخات محدوداً..لم يتسن لي أن أسالكِ عن تفاصيل المواجهة بين ناشطة غربية و جلاد مدعوم من الغرب..لم أتمكن من التعرف إلا على صوتكِ النبيل و شخصيتك الفذة كعاشقة لفلسطين.

لكني لم أنس قبل الوداع. سؤال المرح و المشاكسة التي تمنيته صادقاً في لحظة سادرة..فبقي شارداً يفكر..

"تتجوزيني يا لينا..أنا مجنون! شو رأيك ؟ ".

تجيبك بسرعة غير متوقعة" آه شو يعني. و أنا كمان مجنونة".

و تلتقط حبل المداعبة بيد تستعد للسفر..و تقول:"بس يا لينا..أنا أكبر منك..و مش ساكن هون".

تحدق في ملامحي و تجيب بسرعة أقل.."أنا موافقة ..خلص...تعْ

أسكن هون" و تترك جهة القصد. متبوعاً بالذكرى..القطار يمضي..في ذاكرتك قطار آخر على وشك الوصول.

تجلس في مقصورة العودة. وتختلس النظر إلى راكبة حسناء في المقعد المقابل. تقشر برتقالة و تبتسم.

29

مغامرات شجرة

تبدو أصغر من شقيقاتها ببضعة مواسم و فصول..مع أن وقت الغرس يشير إلى أن جذورها سبقتهم في تراب الحقل بثلاث سنين..مما جعلها تختال...و تقف معتزة بما تحمل من أغصان قوية و فاكهة لذيذة..

في الموسم الماضي، لاحظَ صاحبُ البستان..أن شجرته المتعجرفة أخذت تطرح ثماراً غريبة الشكل..سفرجلية الطعم..فاهتم بأمرها و خصها برعاية استثنائية..و أخذَ يستجيب لكل مطالبها..رغبة منه في أن تعود إلى سابق ثمارها الحلوة.. و حضورها البهي..

و أخذت تنتحل الأعذار و تترك الحقل و تمضي إلى جهات مجهولة..و لا تعود إلى مكانها إلا في آخر الليل..ذابلة الأغصان..صفراء الجذع..مهتزة الأوراق و الفروع..و كان صاحبها الفلاح، طيب القلب، لكن العنيد و المثابر..يجمع ما تساقط منها من أغصان و أوراق، و سيرة كانت معطاءة..من على الطرقات و في دروب التيه و الزوغان. ثم يعيدها إليها دون أن تشعر.

لاحظَ أن المحصولَ بدأ ينقص شيئاً فشيئاً مع كلِّ عام و قطاف..

بدأ الفلاحُ يعاتبُ الشجرةَ المشبوهةَ..ثم شرعَ في مراقبتها.. و اكتشفَ

أنها تمضي إلى أحد الأودية السحيقة المظلمة.. بعد أن تقطف بنفسها ثمارَ الشجراتِ القريبة, و تقدمها إلى ساحرة شريرة عجوز..
لم يتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد التفريطي..إلى علاقة مع شريرة . تتحول ساعة إلى دبابة و ساعة أخرى إلى طائرة وحشية..و أحيانا إلى عاهرة بأسنان مرعبة..
كانت التهمة ثابتة على الشجرة, التي توقفت حتى عن طرح السفرجل الغريب..
نهض مبكراً كعادته في كل فجر.. إعتذرَ من بقية الأشجار و المزروعات النشيطة, لأنه لم يكن يستمع إلى التحذيرات و النصائح..إبتسمت الأشجارُ و اخذ
ثمارها تكبر و تنضج أمام ناظريه..
كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء.. حين نهضت الشجرة الخائنة من نومها..سكبت بعض المياه على وجهها..ثم وقفت أمام المرآة تصلح وضعَ أغصانها المهلهلة.. و حين انتهت من زينتها و من تثبيت مكياج التحايل.. و بدأت تستعد لسرقة أخواتها و الانطلاق إلى الوادي..فوجئت بجذورها تتركها..
كانت ضربة الفأس تنزل, صاعقة, حاسمة.
بعد أن فرغَ الفلاح من مهمته..إنطلقَ إلى وادي الساحرة الشريرة..لم يجد سوى بعض آثار التلاشي و الاندحار و بعض الأوراق المهزومة.

30

نهر التلاقي

إنطلقَ " باسلٌ " من ضفةِ العطش و البسالة و المرايا الرملية، إنطلقت هي، من ضفة البطولات والصرخات البعيدة في غابة الإسمنت و العيون الزجاجية.
مضى صوب زورقه الصغير المطلي باللون الأخضر، الذي أطلقَ عليه اسم ربيع، و كان يعرف أن حبيبته "جنين" تنتظره في زورقها البرتقالي..و أخذَ يفكر بأول كلمة سوف يفتح بها بداية اللقاء..قبل أمتار قليلة..شاهدَ نبتةً صغيرةً تشقُ مساماتِ الجفاف ..إنحنى عليها..أخذ يداعبها كأنها حصانه الأشهب العربي.. لمسها بكف مرتعشة..أخذت نظراته تتجول، علها تعثر على لحظة التبرعم ، إقتربَ منها بأنفه، ثم أقترب منها بكل كيانه..أحسَّ أن جوارحه تستعد لاستقبال أريج لم يأت بلاد العرب منذ مئات السنين..تراجعَ إلى الوراء حين لاحظ الأشواك الغريبة تحيط النبتة الصحراوية من ثلاث جهات..دخلَ من جهة الرجاء..بدأ يقطع الشوكَ و يرميه بعيداً.. أنهكه التعب.. أخذ يتصبب عرقاً و أسئلة..كادَ يقع مغشياً عليه..تذكَّرَ جهةَ الأملِ الفراتي و القدسي المرابط..تنفَّسَ بعمق..تذكر "جنين" التي تنتظره على الشط الآخر..مسحَ جبينه بكوفيته و سارَ نحو نهر

التلاقي..

لم تستأذن سوى قلبها و أمها..لم تتذكر سواه..و حادثة التعارف في نهرٍ جميلٍ و عجيب.لذا لم تتردد في المجيء إليه. في وقت الإبحار المحدد مع بداية نيسان.

اقتربت "جنين" من زورقها..و انتظرت وصوله..مدَّتْ قدميها في الماء..أخذتْ تحركهما.. و تحدقُ في الجهة المقابلة..تستطلع حضور الباسل. تأخرَ عليها، تناوشها القلق..قالت في سرها:"ربما أضرت به الثعابين و غدرته الذئاب" شعرت بالخوف..أخرجت من محفظتها صورته التي التقطها بعد الحرب الأخيرة..ضمت الصورة إلى حضنها..وضعتها فوق قلبها.. زالَ التوجس، شعرتْ بالارتياح و بدأتْ تستعدُ لركوب زورقها، كي تلتقي مع حبيبها" باسل" في وسط النهر، كما اعتادا..منذ أن عرفته إثر تعرض زورقها لرياح عاصفة، عاتية و مساعدته لها و إنقاذها من موت محتم..

بقفزة واحدة كان في الزورق الأخضر..يبحر نحو اللقاء المرتقب..تمنى أن يختصرَ المياه في ثوانٍ..

شاهدته، إلتقت أمواج الفرح و النهر معاً، في إحساس واحد، .أخذت تلوِّح له بمنديل زيتوني..تركَ أحد المجذافين من قبضته، و أخذَ يلوح لها بكوفية الصقر..دون أن تتخلى يده الثانية عن المجذاف الآخر..

وصلَ قلبه إليها، قبل أن يصلَ الزورق حيث تنتظر على الضفة الأخرى..بعد دقائق، كان يصافحها.. و كانت تشير إلى جهة الرجاء في الغابة الإسمنتية، حيث القهر و الإحتلال و المقاومة.. و كان يعدها بغرس الحدائق الغنَاء على ضفتي النهر..كان الباسل يعدها بالحرية..

و بالزواج و إنجاب أطفال يملكون عيوناً من عسلٍ و كبرياء.. أشبالُ ينفـرون من أصحاب الكروش و العيون الزجاجية..و كانت "جنين" تعاهده و تشد من أزر رؤاه..

سارا متشابكي الأيدي و الآمال.. في طريق خارج المدينة..توقفَ في منتصف الطريق، عندما التقت عيناه بنبتة تشبه النبتة التي شاهدها في بيداء الظمأ..لكنه لم يبصر سوى الورود من حولها..لا شوك و لا اجتياحات عوسجية ضارة..

و عندما روى لها الحكاية أجابته :- لأنها قريبة من مقبرة الشهداء.

قال باسل:- إذن هي قريبة..

و ذهبا معاً..لقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء الأبرار.

